

# قبيلة البرانس

## اشكال الهوية والمسار عبر التاريخ

محماي هرنان (باحث في العلوم السياسية)



صورة من جبل هسكورة إلى جبال تايناست في الأفق

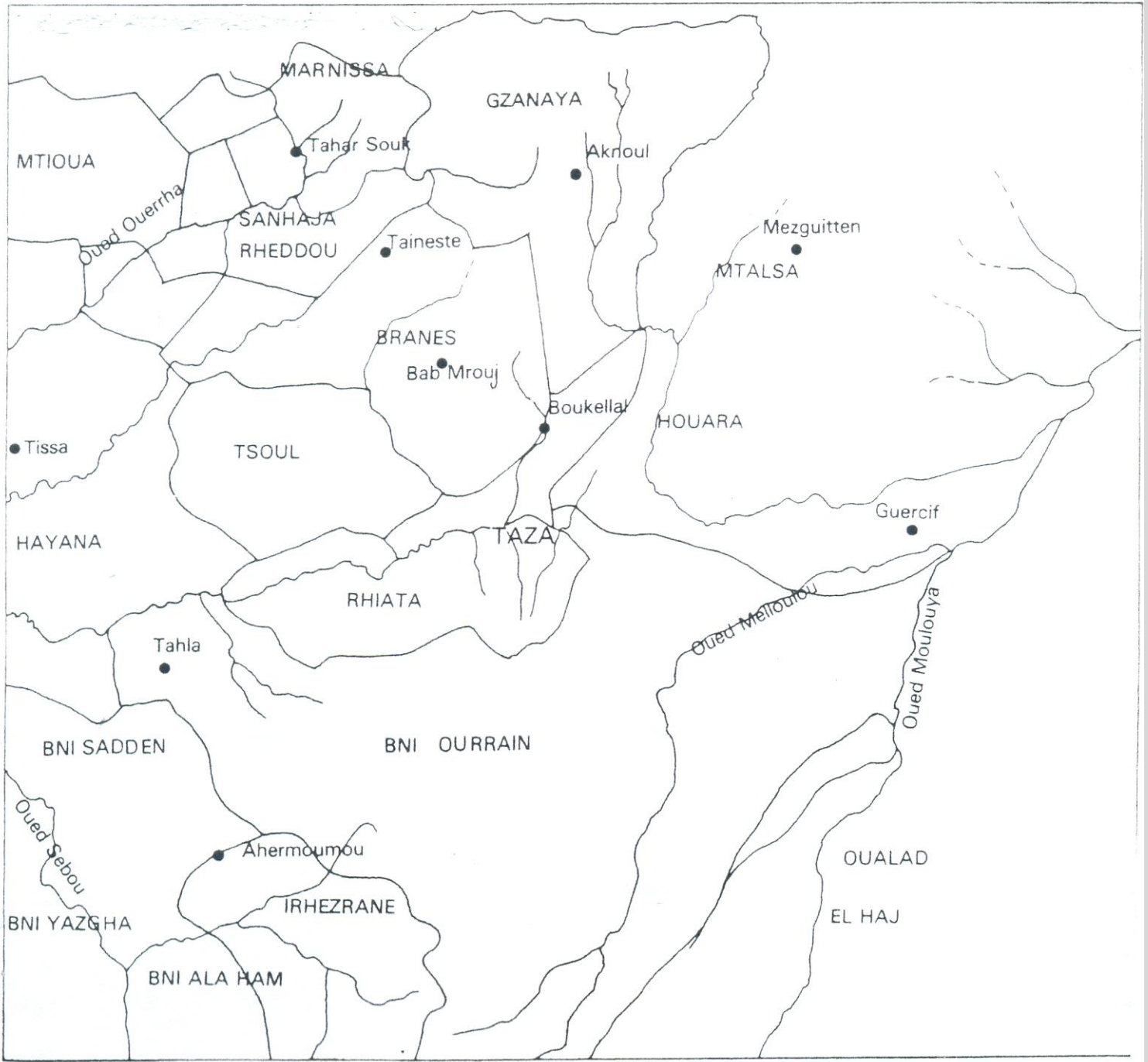


قبايل ممر فاس-تازة: الموقع العام في الشمال المغربي .

خريطة مأخوذة من كتاب: البوادي المغربية...

ص: 29 لعبد الرحمان المودن

Carte : Taoufik Agoumi : Quatorze ans .... P . 145



# الفهرس

4.....	تقديم
5.....	<b>I - اصول الامازيغ - البربر - ومن ضمنهم البرانس</b>
5.....	1- الأطروحة التقليدية حول أصول الأمازيغ
7.....	2- الأطروحة الحديثة أو إعادة كتابة تاريخ الأمازيغ
10.....	<b>II- الامازيغ بين الحلم بالوحدة والدولة وبين تحدي الغزاة</b>
11.....	1- الأمازيغ والفنيقيون بين التجارة والمواجهة
13.....	2- الامازيغ في مواجهة الغزو الروماني
15.....	- ثورة يوغرطة
16.....	- مابعد يوغرطة
18.....	3- الأمازيغ في مواجهة الوندال والبيزنطيين
20.....	4- الامازيغ في مواجهة الغزو (الفتح) العربي
22.....	1-4- ثورة البرانس ضد العرب: كسيلة
23.....	2-4- ثورة البتر ضد العرب: الكاهنة
24.....	3-4- استكمال السيطرة العربية: بداية ثورات جديدة بالمغرب
27.....	<b>III - قبيلة اوربة ( البرانس ) والادارسة : الاستقلال المجهض</b>
29.....	<b>IV - البنيات الاجتماعية والسياسية للبرانس خلال العصر الحديث</b>
29.....	1- سياق عودة البرانس الى الواجهة
30.....	2- البنيات الاجتماعية للقبيلة
34.....	3- المؤسسة السياسية للفرقة : بولرباع
36.....	4- القبيلة : المؤسسة والادوار
37.....	<b>V - علاقة البرانس بالمخزن : من مقاومة سياسة الاخضاع الى الثورة</b>
37.....	1- صراع الاطروحات
40.....	2- مقاومة البرانس لسياسة المخزن
46.....	3- ثورات البرانس على المخزن
46.....	1-3 : مساهمة البرانس في ثورة بوعزة الصهري
49.....	2-3 : مساهمة البرانس في ثورة الجيلالي الزرهوني ( بوحمارة )
50.....	1-2-3 : المقومات الذاتية للثورة : شخصية الزرهوني
51.....	2-2-3 : الدعائم المادية للثورة : الكتل القبلية
54.....	3-2-3 : غزو السلطة
58.....	<b>VI - مقاومة البرانس للاستعمار الفرنسي</b>
58.....	1- السياق السياسي العام للمقاومة
62.....	2- المقاومة المسلحة للغزو الفرنسي: من زعيم إلى آخر
72.....	3- البرانس وثورة الريف: مقاومة بألوان جمهورية
78.....	المراجع

## تقديم

منذ بداية سنوات الثمانينات من القرن العشرين والبحث في موضوع قبيلة **البرانس** التي تقع على بعد بضعة كيلومترات شمال مدينة تازة يتراوح لدي بين الرغبة والجاذبية القويتين وبين التردد في خوض المغامرة لعدة أسباب منها بالأساس التحجج بعدم وجود مراجع مكتوبة ...

كان أصل وتاريخ القبيلة من بين القضايا التي تُوْرَق بال العديد من أبناء القبيلة.

ومن غرائب الصدف وجميها انه وبمناسبة الإطلاع على بعض المراجع استوقفتني الفقرة الأولى من موضوع **قبائل البرانس** ضمن مؤلف تحت عنوان **ذكريات طفولة لطفل من البرانس** لمؤلفه **محمد الرافيع البرنوسي** يتطرق فيها إلى إشكالية الهوية والانتماء إلى قبيلته من خلال ظاهرة توافد الرعاة الرحل على المنطقة .

هؤلاء الرحل كان الجميع يطلق عليهم إسم " **لَعْرَبٌ** " وهم في أغلبيتهم أمازيغ المغرب الشرقي وجنوبه .

أواخر صيف سنوات الخمسينات ، يقول **محمد الرافيع البرنوسي**، كانت الخيام السوداء تظهر على طول وادي الأربعاء وهي حسب والدته للعرب القادمين للرعى بالمنطقة في انتظار العودة بعد هطول أمطار الخريف . ويضيف أنه ومنذ ذلك الحين وهو يعتبر نفسه **برنوسيا**. وفي نفس الاتجاه كان والده دائما يتكلم عن علاقة القرابة بين قبيلة **البرانس** وبين قبائل **عمارة وصنهاجة وهوارة. (1)**

إن ما عاشه **محمد الرافيع** هذا عاشه بشكل أو بآخر العديد من أبناء المنطقة خصوصا المتعلمين منهم. فإشكال الجذور والانتماء طرح علي شخصا وبشكل حاد منذ أواسط السبعينات .

إن سؤال: من نحن ؟ تعزز - بنفس المناسبة - من خلال حضور الآخر أي ظاهرة " **لعرَب** " الرحل ومن خلال ذلك الإنتباه إلى العديد من الكلمات والأسماء الأمازيغية للأماكن والأدوات والنباتات يتداولها سكان القبيلة بتلقائية ودون وعي بكونها كذلك مثل :

- **كرلالو** : طبق مصنوع من الحلفاء أو الدوم يوضع فيه الخبز ويعلق بالسقف بعيدا عن الزواحف...
- **تافروت** : أداة خشبية من مكونات المحراث الخشبي.
- **تاورا** : نبتة قد يصل طولها إلى مترين.
- **أسفط** : عود يستعمل لدفع الحطب نحو النار.
- **أورز** : مؤخرة القدم.
- **تافزا** : نوع من التراب يستعمل بدل الإسمنت في البناء.
- **ازري** : ممر ضيق يستعمله سكان الدوار أو الدشر.
- **امزواغ** : نوع من التراب يوضع فوق أسطح المنازل لمنع المطر من التسرب إلى داخل البيوت.
- **ازدم** : مكان للحطب أو الغابة.
- **أشبار**: مكان أو برج للمراقبة وحراسة الدوار أو القبيلة. (2)

إن التطرق إلى قبيلة البرانس كموضوع للبحث والدراسة شأنه شأن كل القبائل المغربية، يطرح العديد من التعقيدات التي يفرضها الإقتراب من مجموعات اجتماعية لها جذور ضاربة في عمق التاريخ بمستوياته المحلية والوطنية والإقليمية. فالتحديات كبيرة ومعقدة منها ما هو منهجي ومنها ما هو مرتبط بالمنتوج النظري حول هذا النوع من المجموعات الاجتماعية.

منهجيا، يصعب التحديد الدقيق لقبيلة البرانس من حيث الجذور الحقيقية، والمسار عبر التاريخ الذي عاشته إلى حدود اليوم، وذلك بسبب التحدي الفكري الذي لازال قائما، وهنا يطرح إشكال الكتابة التاريخية وضرورة القيام بمجهودات عبر التدقيق في هذه الكتابات والبحث عن مصادر أخرى: كتابات مجهولة، أبحاث أركيولوجية... ويصعب كذلك فصل تاريخ البرانس عن تاريخ البتر، فكلتا القبيلتان المتواجدتين بدول شمال إفريقيا، أطلق عليها لقب "البربر" من طرف الرومان والغزاة الذين أتوا بعدهم، ولم يتم إطلاق اسم **البرانس والبتر** إلا مع الغزاة العرب.

لهذا، ستعمل هذه الدراسة على التطرق إلى الأمازيغ: **بتر وبرانس** كمجموعة بشرية واحدة قبل تركيز البحث على البرانس لوحدهم مع بداية الغزو العربي لشمال إفريقيا، وذلك من خلال المحاور التالية:

- الأصول القديمة للأمازيغ التي تعود إلى آلاف السنين وليس القرن الثالث عشر قبل الميلاد كما يذهب إلى ذلك أصحاب أطروحة هزيمة الأمازيغ أمام بنو إسرائيل ونزوحهم إلى شمال إفريقيا.
- التنظيمات السياسية للأمازيغ ومجهوداتهم من أجل تحقيق الوحدة ومواجهة غزو القوى الأوروبية والعرب.
- محاولة قبيلة **أوربة** البرنوسية تأسيس الدولة بجبل زرهون وتحقيق الاستقلال المجهُض خلال القرن الثامن الميلادي.
- البنيات الاجتماعية والسياسية لقبيلة **البرانس** شمال تازة خلال القرن التاسع عشر وأشكال المقاومة للحفاظ على هذه البنيات.
- ثورات قبيلة **البرانس** على المخزن ثم فرنسا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى نهاية ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

## I- أصول الأمازيغ - البربر - ومن ضمنهم البرانس

يصطدم الباحث في أصول الأمازيغ بتناقض جوهرى بين أطروحتين رئيسيتين:

الأطروحة التقليدية التي ترجع سبب استقرار الأمازيغ بشمال إفريقيا إلى الحرب والنزوح بعد هزيمتهم أمام بنى إسرائيل، والأطروحة الحديثة التي ترفض أي تفسير أسطوري أو ديني ينطلق من التوراة، خاصة سفر الخروج أي خروج اليهود من مصر هربا من فرعون وذهابهم إلى بلاد كنعان، ثم عصر يشوع أو يوشع والقضاة أي مرحلة إعلان بنو إسرائيل الحرب المدمرة على الشعوب المستقرة بفلسطين...

تعتمد الأطروحة الحديثة على مختلف الحقول المعرفية الحديثة: أركيولوجيا، انثروبولوجيا... لاعادة كتابة تاريخ الأمازيغ المتواجدين بشمال إفريقيا منذ آلاف السنين وليس بسبب هزيمة في حرب خلال القرن 13 ق م.

### 1- الأطروحة التقليدية حول أصول الأمازيغ 1-1-الأصول الشرقية

يقول ابن خلدون إنهم من سكان المغرب القديم استوطنوا بالجبال والسهول والتلال، منهم يعيش حياة

الاستقرار في مساكن قارة ويمارس الزراعة وتربية الماشية ومنهم من عاش حياة الترحال بالماشية. (3)

ويضيف أن علماء النسب متفقون على أنهم ينحدرون من جدين عظيمين هما **برنس ومادغيس** وهما أخوان من أب واحد، حيث يقال لأحفاد برنس **البرانس** ولأحفاد مادغيس الملقب بالأبتر، **البتير**. **فالبرانس** تتكون من سبعة قبائل وعند بعض النسابة عشرة هي كالتالي: ازداجة، مصمودة، أوربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أوريغة، لمطة، هسكورة وكزولة، وكل واحدة منها تتفرع إلى قبائل أخرى...

أما قبائل **البتير** من جدهم مادغيس الأبتر فهي: أداسة ونفوسة وضربة أو ضريسة وبنولوا. وهذه القبائل الأربعة تتفرع إلى العديد من القبائل التي لازالت تحتفظ بأسمائها الأصلية منها: هواره، نفاوة، مغراوة، مرنيصة، زناتة، مكناسة، زواغة ...

في مواجهة اختلاف المؤرخين وعلماء النسب حول أصل ومواطن الأمازيغ ومنهم البرانس، هل هم من اليمن أو الشام أو فلسطين أو مصر؟ هل ينحدرون من شعوب كنعان أم العماليق أم من قبائل حمير ومصر أم القبط أم من قريش؟ يقول **إبن خلدون** بخصوص أصلهم ما يلي: "والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم من أنساب الخليقة وأن إسم أبيهم مازيغ وإخوانهم أركيش، وفلسطين إخوانهم بنوكسلوحييم بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له، وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة وكان بنو كنعان وأركيش شيئا لفلسطين... (4)

إذا ومنذ القدم شكل **الكنعانيون والفلسطينيون** تلك المجموعات البشرية المتقاربة من حيث الانتماء - نوح - ومن حيث الموقع الجغرافي - أرض فلسطين ولبنان ومن حيث المصير المشترك والصراع - من أجل البقاء - مع القوى المعادية مثل الفراعنة والإسرائيليين وغيرهم.

وفي نفس الإتجاه يذهب **نجيب زينب** مؤلف " الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس" حيث يشير إلى أن الأبحاث بينت أن لغة الأمازيغ هي لغة الكنعانيين والتي هي فرع من اللغة السامية الأصلية أي لغة نوح وأبنائه. (5)

أما موطن **الكنعانيين** أجداد الفينيقيين كذلك فهو بين سوريا وفلسطين، اشتهروا بالحضارة الغسولية التي اعتمدت على زراعة القمح والشعير، وغراسة أشجار العنب والتين والزيتون ثم التجارة واستخراج المعادن.

## 2-1- أسباب النزوح إلى شمال إفريقيا

منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد **والكنعانيون** المستقرين بفلسطين ولبنان وسوريا يعانون من مختلف أشكال التوسع والغزو من طرف جيرانهم. فحكام مصر ومنذ 1570 قبل الميلاد شنوا العديد من الحملات بلغت 20 حملة عسكرية قادها كل من **أحمس الأول ورعمسيس الثاني** و**تحتمس** نتج عنها تدمير وتفجير المدن والسكان، وهجرة كبيرة من كنعانيي سوريا ولبنان وفلسطين إلى شمال إفريقيا وبعض المدن على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط الأوربي حيث كانت بعض المدن تحت سيطرتهم بجزيرة إيبريا وفرنسا وإيطاليا واليونان.

(3) لمزيد من التفاصيل حول موقع الأمازيغ بالمغرب وأصولهم وفروعهم، أنظر كتاب: **عبد الرحمان ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون** - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1992 - الطبعة الأولى - المجلد السادس - الصفحة: 113.

(4) **عبد الرحمان ابن خلدون**: نفس المرجع والصفحة

(5) **نجيب زينب**: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس - دار الأمير للثقافة والعلوم - بيروت. لبنان. الجزء الأول - سنة 1995 - ص: 72

لم تتوقف معاناة **الكنعانيين** بل استمرت مع غزوة البلاسجيين - سكان شبه جزيرة البلقان قبل مجيء الإغريق إليها - حوالي سنة 1170 قبل الميلاد ، تم غزوات الآشوريين والفرس والإسرائيليين والمقدونيين نسبة إلى الإسكندر المقدوني.

فخلال القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد وبعد طرد فرعون لليهود من مصر ، قام هؤلاء بقيادة يوشع بن نون بالعديد من الغزوات للاستيلاء على أراضي **الكنعانيين** و**الفلسطينيين** نتج عنها طرد الكنعانيين أي الأمازيغ نحو شمال إفريقيا. (6).

## 2- الأطروحة الحديثة أو إعادة كتابة تاريخ الأمازيغ

في مواجهة الأطروحة التقليدية التي تعتمد على نصوص التوراة لتخلص إلى دور الاكتساح العسكري الذي قاده **يشوع/يوشع بن نون** ضد بلاد **كنعان** و**فلسطين** وما لحقهما من دمار كبير، في دفع الكنعانيين أجداد الأمازيغ إلى النزوح نحو شمال إفريقيا والاستقرار به، يقدم الباحث **فرح السواح** اعتماداً على أحدث الأبحاث الأركيولوجية أطروحة مغايرة حول نشوء إسرائيل والأحداث التاريخية لتلك المرحلة بهذه المنطقة ليخلص إلى النتائج التالية:

- إن التاريخ المفترض لخروج بنو إسرائيل من مصر هو منتصف القرن 13 ق م، وهو ما يتناقض مع الوضعية العامة بمصر التي كانت تحت حكم الفرعون **رمسيس الثاني** (1290 ق م - 1224 ق م) المشهور بأعمال البناء والتشييد لأكبر المعالم العمرانية، معتمداً على اليد العاملة المسخرة التي شكل الإسرائيليون جزءاً كبيراً منها. (7)

- ما بين القرن السادس عشر والثاني عشر قبل الميلاد، عاشت مناطق آسيا الغربية أي سوريا وفلسطين... موجة جفاف قاسية نتج عنها هجرة كبيرة للسكان إلى المناطق الأقل جفافاً ووقعت فلسطين فريسة سهلة لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة التي حكمت المنطقة عن طريق ملوك محليين. لكن الانهيار الاقتصادي الشامل الذي وقع أواخر القرنين 13 و 12 قبل الميلاد، دفع بمصر إلى الانسحاب من فلسطين التي عاشت مدنها الدمار الكامل بفعل هذا الانهيار وليس بسبب الاكتساح العسكري **ليوشع بن نون** كما تدعي التوراة والأطروحة التقليدية. (8)

- أواخر القرن الثالث عشر ق م، ظهر عنصر جديد بالسواحل المتوسطية الجنوبية يطلق عليه إسم **شعوب البحر** أي سكان اليونان وجزر بحر إيجه، استقروا بشمال إفريقيا هرباً من الجفاف والحروب فتحالفوا مع الليبيين من أجل السيطرة على مصر لكن الفرعون **مينبتاح (Minptah)** سيهزمهم حوالي 1220 ق م. وبعدها بسنوات ستتحرك جماعات أخرى من **شعوب البحر** نحو فلسطين عبر سوريا مدمرة المدن الكنعانية وهدفها الأخير مصر لكن **رمسيس الثالث** خليفة **مينبتاح** قضى عليهم جنوب فلسطين حوالي سنة 1191 ق م. (9)

(6) لمزيد من التفاصيل أنظر:

- **نجيب زينب**: الموسوعة... مرجع سابق: ص: 95-119  
- **أحمد فرج**: اليهود واليهودية: التاريخ والعقيدة والأخلاق - دار الوفاء - المنصورة - مصر - طبعة 1 - سنة 1997.

يقول **أحمد فرج** أن حروب بني إسرائيل على الكنعانيين والفلسطينيين على عهد يوشع بن نون (1267 ق م - 1157 ق م) نتج عنها اغتصاب أرض الكنعانيين وقهرهم بينما لم يتم هزم الفلسطينيين الذين صمدوا إلى حين غزو الملك داوود للقدس في القرن العاشر قبل الميلاد. ص: 40 إلى 44

(7) **فرح السواح**: أرام دمشق وإسرائيل، في التاريخ والتاريخ التوراتي. منشورات دار علاء الدين. الطبعة الأولى 1990. دمشق. سوريا. ص: 75.

(8) نفس المرجع: ص: 80.

(9) نفس المرجع: ص: 84-85.



- إن الشواهد الأركيولوجية تنفي نفيًا قاطعًا رواية **يوشع بن نون** عن الاقتحام العسكري لأرض كنعان "ذلك أن نتائج التنقيب الأثري في مواقع المدن التي يعزو النص التوراتي تدميرها إلى **يوشع**، تظهر عدم تطابق تاريخ دمار معظم هذه المدن مع التاريخ المفترض لقدم الإسرائيليين إلى كنعان". (10) أما دمارها فكان وراءه الفرعون وشعوب البحر.

- لم يذكر اسم إسرائيل كدولة في وثائق الشرق القديم إلا مع ظهور مملكة السامرة سنة 880 ق م التي سيدمرها الآشوريون سنة 721 ق م، ثم مملكة يهوذا مع نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. (10 مكرر)

إن أهم الخلاصات التي يمكن استنتاجها من دراسة الباحث **فراس السواح** فيما يخص أصول الأمازيغ هي:

- إن رواية الاكتساح العسكري ل**يوشع بن نون** لكنعان وهروب الكنعانيين أجداد الأمازيغ حسب الرواية التقليدية بعد مقتل ملكهم جالوت نحو شمال إفريقيا، ما هي إلا (الرواية) أسطورة من التوراة التي حررت نصوصها بمآت السنين بعد هذه الحقبة أي خلال القرن 13 ق م، أسطورة تبناها العديد من المؤرخين العرب وغيرهم.

- إن الأمازيغ كانوا مستقرين منذ آلاف السنين بشمال إفريقيا وكانت لهم علاقات مع محيطهم حتى أن الفراعنة كانوا يطلقون عليهم اسم "الليبيين".

- لقد استقبل شمال إفريقيا الأمازيغي هجرتين كبيرتين خلال هذه المرحلة: شعوب البحر أي سكان الجنوب الأوربي ثم الفينيقيون فيما بعد.

وفي هذا الإطار يقول الباحث **العربي عقون** " تعود الإشارات الأولى إلى السكان الذين يسمون منذ الفتح العربي "بربر"، إلى العهود الفرعونية، منذ الإمبراطورية القديمة، فقد كان المصريون على علاقات مباشرة، أحيانا حربية وأحيانا أخرى سلمية، بجيرانهم من جهة الغرب: أولئك **الليبو (LEBOU)** أو الليبيون، التحنو أو التحمو، أو المشوش (**Tehenu, Temehu, Mashwash**).

كان أولئك الليبيون متفرعين إلى عدد هام من القبائل، وتذكر النصوص الفرعونية عنهم أحداثًا تاريخية هامة وعلى الخصوص محاولة غزوهم الدلتا بقيادة **مرياي (Meryey)** في السنة الخامسة من حكم **مينبتاح (Mineptah)** سنة 1227 ق م، وقد حملت إلينا النقوش التصويرية الهيروغليفية أسماء شخصيات ليبية، ومعلومات دقيقة ذات أهمية تاريخية وإثنوغرافية فضلا عن ملامح وأدوات وملابس وأسلحة أولئك الليبو، نقلت كل ذلك إلينا بدقة الصور الشمسية اليوم بما في ذلك الوشم". (11)

لكن الأبحاث الأركيولوجية لم تتوقف عند حد التاريخ المكتوب لدى الفراعنة حول الليبيين أي الأمازيغ، بل اهتمت بأسلافهم أي الشعوب التي عمرت شمال إفريقيا منذ العصور الكبرى القديمة حيث أثبتت الحفريات وجود شعوب سابقة تم تصنيفها اعتمادًا على بنية الجسم ونمط العيش أي الأدوات المستعملة ونوع الإنتاج الفلاحي والفن والزخارف وطرق وطقوس الدفن بالمقابر وغير ذلك من الآثار التي تركها شعب كل عصر.

في مقال تحت عنوان " أصول الإنسان بالمغرب " تطرق الأركيولوجي **ENNOUCHI EMILE** إلى أهم النتائج التي توصلت إليها الحفريات بالمغرب والتي يمكن تقديمها على الشكل التالي : (12)

(10) نفس المرجع: ص: 182.

(10 مكرر) : نفس المرجع . صفحة : 183

- (11) **العربي عقون**: الأمازيغ عبر التاريخ. نظرة موجزة في الأصول والهوية. التنوفي للطباعة والنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى. الرباط، 2010. ص: 7

- (12) **EMILE ENNOUCHI** : Origines de l'homme au Maroc. Revue Hesperis Tamuda. Volume : 5.

1964. P : 165 – 166.

- تثبت بقايا البشر المكتشفة بسيدي عبد الرحمان ( الدار البيضاء) وتمارة ( الرباط) ، أنها لإنسان عاش ما بين 500.000 و300.000 سنة خلت ، وهو قريب شيئا ما من **الإنسان النياندرتالي NEANDERTHALIEN** الذي اكتشفت جماجمه وكذا بقايا حيوانات ونار وأدوات بجبل إغود IRHOUD من طرف الباحث إميل إنوشي نفسه.

- إنها مرحلة **الصناعة المoustيرية INDUSTRIE MOUSTERIENNE** التي تلتها مباشرة **الصناعة العاترية INDUSTRIE ATERIENNE** التي تتميز بوجود أدوات أكثر تطورا اكتشفت بعين فريطيسا ثم دار السلطان بالرباط . تمتد مرحلة الإنسان العاتري هاته من 28000 إلى 150000 سنة خلت.

- **الإنسان العاقل ( إنسان المشتى )** : سواء بالرباط أو وجدة أثبتت الحفريات عن وجود مستحاثات FOSSILE وهيكل عظمية بشرية اطلق على صاحبها اسم "إنسان المشتى" الذي عاش قبل سنة 11000 التي خلت أي خلال العصر الحجري القديم والأوسط.

إنسان المشتى هذا حسب **العربي عقون (13)** يصل طوله الى 1.74 م، لكن وجهه العريض غير منسجم مع المحجر ذي الشكل الطولي ، ويصنع أدواته في شكل قطع منفصلة يمكن تركيب مقابض خشبية أو عظيمة عليها مما يجعلها أدوات وأسلحة فعالة.

بعد تأكيده على الروابط اي الانحدار المباشر والمتواصل منذ **الإنسان النياندرتالي إلى الإنسان العاتري إلى إنسان المشتى** يتطرق الباحث **العربي عقون** إلى نموذج جديد من الإنسان ظهر منذ آلاف الثامنة قبل الميلاد بالقسم الشرقي من شمال إفريقيا، له خصائص مشتركة مع السكان المتوسطيين الحاليين ( طول الرجل 1.75 م والمرأة 1.62م)، ومع إنسان المشتى لكنه أضخم منه شيئا ما، ويقدم أي الباحث الخلاصات التالية:

- إنه **الإنسان البروتو متوسطي القفصي** الذي عاش بالجزائر وتونس وغطى المرحلة الممتدة من الألف الثامنة إلى الألف الخامسة أي العصر الحجري الحديث أو النيوليتي. ومن خلال أدواته - نصيلات، سكاكين، أزاميل وأعمالهم الفنية... " يمكن القول بأنها أصل الأعمال الفنية الرائعة في النيوليتي وهي - وهذا هو الأهم - أصل الفن الأمازيغي، فهناك تقارب في الديكورات القفصية والنيوليتية، لايزال الأمازيغ يستخدمون بعضا منها في الوشم وفي النسج وفي زخرفة الفخار وحتى الجدران...

- يمكن وضع **الإنسان القفصي البروتومتوسطي** على رأس قائمة السلالة الأمازيغية.  
- لا يمكن الجزم بالأصول الشرقية لهذا الإنسان رغم إمكانية حدوث الهجرة في السابق وكذا التشابه في بعض الملامح الثقافية مع الناطوقيين المتواجدين بفلسطين.  
- رغم استمرار **إنسان المشتى** في بعض المناطق بالمغرب الأطلسي، والزنج بالصحراء فان " الشمال الإفريقي أصبح منذ فجر التاريخ متوسطيا أو بالأحرى متمزعا"  
- خلال عصر المعادن ظهر بصحراء طرابلس **مربو الخيول وسائقو العربات** واستولوا على الصحراء على حساب الإثيوبيين. إنهم **الغرامنت (GARAMANTES) والجيتول (GETULES) أو (GAETULLI)** الذين تركوا أمازيغ الصحراء كأحفاد لهم.  
- يمكن القول بفكرة تفرع الأصول البعيدة للأمازيغ والفراعنة عن أصل واحد مشترك، اعتمادا على القرابة الملحوظة بين اللغات الأمازيغية والمصرية والسامية.

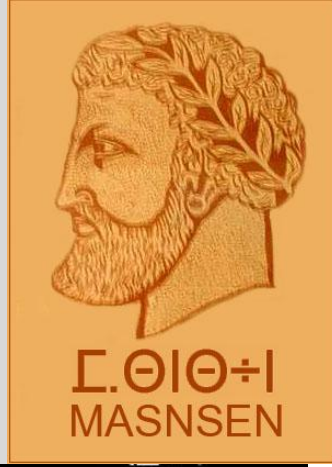
## II الأمازيغ بين الحلم بالوحدة والدولة وبين تحدي الغزاة

إن تواجد الأمازيغ بشمال إفريقيا منذ آلاف السنين طرح عليهم العديد من التحديات من أهمها: خلق آليات للتنظيم السياسي والاجتماعي ومواجهة الخطر الخارجي.

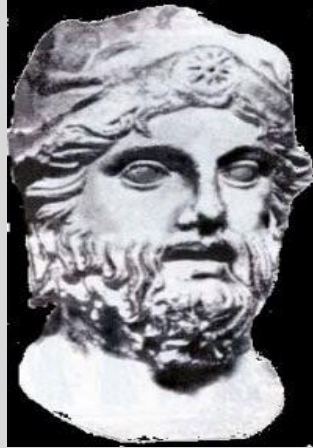
فمنذ القرن العاشر قبل الميلاد وإلى حدود القرن السابع بعد الميلاد تعاقب على شمال إفريقيا : الفينيقيون، والإغريق والرومان والوندال والبيزنطيين والروم ثم العرب. بالنسبة للفينيقيين لم يطرح المشكل بالحدة التي طرحها قدوم الغزاة الآخرين.

## ملوك وزعماء امازيغ

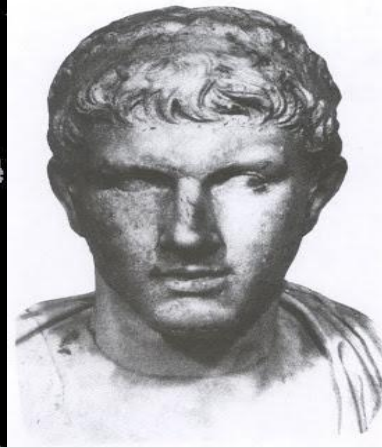
ماسينيسن



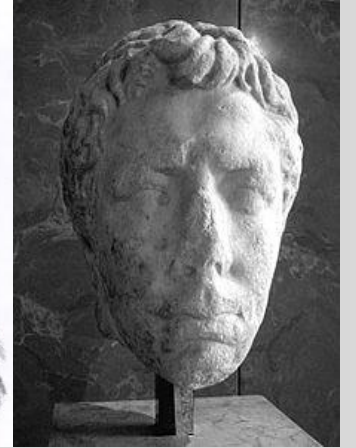
يوغرطن تاكفاريناس



يوبأ 2



بطليموس



يوبأ 1

## 1- الأمازيغ والفينيقيون: بين التجارة والمواجهة

لقد ارتكز الاستيطان الفينيقي على الحصول على امتياز التمركز التجاري في سواحل شمال إفريقيا، تلاه تأسيس مدينة قرطاج سنة 814 ق م من طرف الأميرة الفينيقية **إيليسا** مقابل دفع أتاوة سنوية إلى الملك الأمازيغي **يارباس**. إلا أن فينيقيو قرطاج ومنذ القرن الخامس ق م توقفوا عن دفع الأتاوة للملوك النوميديين بذلك استقلالهم عن الأمازيغ. ومع أواسط القرن الثالث ق م، ثارت الفرق المساعدة في الجيش القرطاجي المكونة في أغلبها من الأمازيغ على قرطاج التي تخلت عن التزاماتها اتجاههم نتج عنها إبادة أكثر من 20 ألف أمازيغي والتنكيل بقائدهم **ماطو**. (14)

إن استقرار **الأمازيغ** ما بين ليبيا والمغرب لم يخضع لتقسيم صارم للمجال الجغرافي من طرف كل من **البتير والبرانس** بحيث وحسب المعطيات التاريخية المتوفرة نجد تساكنا وفي منطقة واحدة للبرانس والبتير. فكتامة وصنهاجة القبيلتان البرنوسيتان يتوزع وجودهما ما بين المغرب والجزائر كما أن زناة المنتمية إلى البتير تتواجد في أكثر من دولة بشمال إفريقيا.

هذا الوضع لم يمنع القبائل المنحدرة سواء من البتير أو البرانس لوحدها أو بتحالف مع غيرها من تشكيل تنظيمات سياسية إجتماعية أساسها الكتلة القبلية الرئيسية.

وقد يتدرج التنظيم من وحدة سياسية عادية تحت قيادة زعيم قبلي إلى شكل دولة يقودها أمير أو ملك حسب الظروف الداخلية والخارجية.

في هذا الإطار يتطرق **عبد العزيز أكريز** إلى الموقع الإستراتيجي وكذا الثروات الحيوانية والمعدنية التي كانت تتوفر عليها منطقة المغرب الشرقي والتي شكلت قاعدة مهمة للإستقرار البشري قبل القرن الخامس قبل الميلاد، وبالتالي تمتين الروابط التجارية بين التجار الفينيقيين والقبيلة المستقرة حول نهر ملوية والتي ستتطور إلى الدعم العسكري.

"وقد كانت هذه القبيلة متمركزة بهذه الجهة منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل، وتعاملت تجاريا مع الفينيقيين المستقرين بروسادير، وتعاملت أيضا مع القرطاجيين، حيث أمدتهم بقوات مسلحة سنة 406 ق م، خلال حربهم ضد المدن الإغريقية بجزيرة صقلية.

وقد يكون أحد زعمائها هو الذي توجه إليه، حوالي سنة 340 ق م، **حنون القرطاجي** طلبا لمساعدته في الاستحواذ على السلطة بقرطاج " (15).

منذ تلك الفترة إزدادت الأهمية الإستراتيجية لشمال إفريقيا، حيث وبعد إنهاء فينيقية خلال القرن السادس قبل الميلاد قام الإغريق بحروب كثيرة سنوات 406 و 340 و 310 قبل الميلاد للإستيلاء على إرثها وبالتالي الإستيلاء على قرطاج بتونس التي تعتبر إستمرارا للفينيقيين.

(14) أنظر: **العربي عقون**: الأمازيغ ... مرجع سابق . ص: 65-66

(15) **عبد العزيز أكريز**: تاريخ المغرب قبل الإسلام - الممالك الموربة الأمازيغية قبل الاحتلال الروماني. مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - المغرب - الطبعة الأولى - ص: 47. أنظر كذلك: حول العلاقات التجارية بين الأمازيغ والفينيقيين:

**BERNARD LUGAN** : Histoire du Maroc – des origines à nos jours. CRITERION – Paris – 1997 – 2<sup>ème</sup> édition – P : 14-15

بعد هذا، سيرث الرومان سياسة الإغريق الصقليين أي السيطرة على قرطاج، حيث اجتازت القوات الرومانية البحر نحو قرطاج سنة 236 قبل الميلاد ثم تدميرها والاستيلاء عليها سنة 146 قبل الميلاد (16).

في خضم الحروب هاته بين قرطاج والإغريق والرومان، كيف كان وضع الأمازيغ: بتر وبرانس؟

هناك شبه إجماع لدى المؤرخين على وجود تنظيمات سياسية أمازيغية تقتسم شمال إفريقيا في تعايش نسبي مع سلطة قرطاج عكس ما سيحصل مع مختلف الغزاة بدءا من الرومان وإنهاء بالعرب.

في المغرب يقول **برنار لوكان** كانت بداية المملكة الموريطانية قبل القرن السادس قبل الميلاد، حيث تشكلت من إتحادية كبرى من القبائل تمتد من طنجة إلى نهر ملوية، بينما تشكلت مملكتان أخرتان إقتسما المنطقة الكبرى المسماة نوميديا أي من نهر ملوية إلى حدود سلطة قرطاج سميت الأولى: ماسولة أو مسيلة MASSYLES والثانية مزيسولة أو المزسيلة MASAESYLES (17).

في خضم عملية التأسيس للدولة والوحدة والعمل على إستقرارهما، كيف سيكون مصير الأمازيغ مع الغزاة؟

## مملكة موريطانيا – الموريين

هناك اختلاف بين الباحثين حول مواطن القبائل الأمازيغية التي تشكلت في اتحادية قبلية كبرى لتعطي مملكة موريطانيا، فهناك من يقول إن موقع المملكة هو شرق الريف المغربي ونهر ملوية ومن يذهب إلى أنها تمتد من طنجة إلى نهر المسافة في الشمال الغربي من قسنطينة بالجزائر (18).

لقد تعاقب على هذه المملكة العديد من الملوك من بينهم **باكا BAGA** أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، **بوكوس** الأول ما بين 118 و 81 قبل الميلاد، **بوغود** أو **بوجود** أواسط القرن الأول قبل الميلاد، **بوخوس الثاني ابن سوسوس** خلال القرن الأول قبل الميلاد (49 ق م و 33 ق م)، **يوبا الأول** (48 ق م)، **يوبا الثاني** (25 ق م - 33 م)، **بطليموس ابن يوبا الثاني** (33 م - 40 م)، **أسكاليبس** (القرن الأول قبل الميلاد).

## مملكة مزيسولة – المزسيلة

حسب الباحث **العربي أكنينج**، كانت هذه المملكة تمتد من نهر ملوية غربا حتى نهر شليف شرقا، عاصمتها سيرتا أي قسنطينة بالجزائر. تميز وجودها بعلاقة المصاهرة التي كانت تربط ملكها **سيفاكس** المتوفى سنة 203 ق م بالامبراطورية القرطاجية ورغبته في توحيد الأمازيغ قبل ان تنهار سلطته كليا سنة 203 ق م. (19)

---

(16) **عبدالله العروي** : مجمل تاريخ المغرب. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. الجزء الأول - الطبعة الأولى - 2007 - الصفحة 60-59.

17) Voir : **BERNARD LUGAN : Histoire...op cit P: 15 - 16**

كذلك: **عبد اله العروي** : مجمل... مرجع سابق - ص: 60

**العربي أكنينج**: في المسألة الأمازيغية أصول المغاربة - مطبعة أنفو-برانت، فاس. الطبعة الأولى - 2003 - الصفحة : 18-17-16. (18) أنظر:

**BERNARD LUGAN: Histoire... op.cit. P. 16**

**العربي أكنينج**: في المسألة... مرجع سابق - ص: 16

**عبد العزيز أكرير**: تاريخ... مرجع سابق: ص: 47

(19) **العربي أكنينج**: في المسألة... مرجع سابق. ص: 17

## مملكة ماسولة أو المسيلة

بعد انهيار سلطة **سيفاكس**، سيتولى **ماسينيسا** أو **ماسينسن** (202 - 148 ق م) الملك بماسولة ويعمل " ... على توحيد القبائل الأمازيغية التي كانت تنتشر بين منطقتي طرابلس شرقا ونهر الملوية غربا وذلك في إطار نوميديا المستقلة بذاتها " (20). وبعد وفاته خلفه ابنه **مسيبسا (مكبسا)** (148 - 118 ق م) ليستمر في نفس السياسة الوحدية والتنموية لأبيه.

إذا كانت العلاقات القرطاجية الأمازيغية تتسم في مجملها بالسلم والمساندة والتبادل التجاري، فكيف كانت العلاقة مع الرومان الذين احتلوا قرطاج منذ سنة 146 ق م وكذا شمال إفريقيا حتى سنة 439 بعد الميلاد؟

### 2- الأمازيغ في مواجهة الغزو الروماني

هناك من جهة أمبراطورية رومانية تتوفر على جميع المصادر المادية والمعنوية لنهج سياسة الغزو والتوسع، وهناك من جهة ثانية قبائل أمازيغية استوطنت مجالا جغرافيا واسعا ولم تستطع تحقيق حلم الوحدة وتأسيس الدولة أو الأمبراطورية كما سيحدث لاحقا عندما إستطاع البرانس إنجاز مشروع الأمبراطورية المرابطية - قبيلة صنهاجة - ثم الموحدية - قبيلة مسمودة.

فأمازيغ المرحلة الرومانية فرض عليهم منذ البداية التحدي الأصعب: تأسيس الدولة المستقلة وتحقيق الوحدة وما يستتبعه من صراع مع الرومان أم اكتفاء الزعيم القبلي أو الملك بالتبعية للرومان والحصول على لقب " صديق روما "؟

خلال الحرب البونيقية الثانية (218 و 202 قبل الميلاد) بين القرطاجيين والرومان، ظهرت الملامح الأولى لمستقبل مشروع الدولة الأمازيغية.

لقد كانت هناك ثلاث دول أو ممالك أو إمارات أمازيغية تقسم شمال إفريقيا: نوميديا الشرقية بقيادة **ماسينيسا** أو **ماسينيسن**، نوميديا الغربية بقيادة **سيفاكس**، وموريطانيا أي المغرب بقيادة **باكا**.

هناك إشارات على وقوع استقطابات كبرى وأولية للتحالف التي قسمت الأمازيغ بين قرطاج وروما.

سيعمل **باكا** الملك الموري - موريطانيا - على دعم **ماسينيسا** حليف روما المتحاربة مع قرطاج التي يصطف معها **سيفاكس** ملك نوميديا الغربية، إلا أن الباحث **عبد العزيز أكرير** يقلل من شأن انضمام **باكا** للتحالف الأول حيث يعتبر دعم **باكا** ل**ماسينيسا** يهمل الشأن الداخلي بنوميديا الشرقية- ماسوليا-وليس دعمه كتحالف روماني ضد قرطاج.

لقد جهز **باكا** أربعة آلاف مقاتل لإصطحاب **ماسينيسا** إلى بلاده والذي يهدف إلى استرداد السلطة من خصومه المدعمن من طرف قرطاج و**سيفاكس** ملك نوميديا الغربية - ماسيسوليا - كما أن تواجد فرق عسكرية مورية - فرق مرتزقة فقط حسب المؤلف - بجانب الرومان في حربهم ضد قرطاج بين 204 و 202 قبل الميلاد لا يعبر عن وجود تحالف ثلاثي بين **باكا** و**ماسينيسا** و**الرومان** ضد **سيفاكس** وقرطاج.(21).

شكل هذا التقاطب شرخا في علاقة الأمازيغ بعضهم ببعض وهم يؤسسون للدولة والوحدة. بفضل دعمه لروما حصل **ماسينيسا** على جميع الأراضي المغزوة ومن ضمنها نوميديا الغربية التي توفي ملكها

(20) نفس المرجع: ص: 18  
انظر لمزيد من التفاصيل، **قابر بال كامبيس**: في اصول البربر، ماسينيسا او بداية التاريخ. تعريب وتحقيق العربي عقون  
(21) **عبد العزيز أكرير**: تاريخ... مرجع سابق - ص: 47-48



ضريح سيفاكس بالجزائر



ضريح ماسينيسا بالجزائر

**سيفاكس** سنة 203 قبل الميلاد. وعمل على توحيد الأمازيغ من طرابلس شرقا إلى نهر ملوية غربا بالمغرب تحت إسم "نوميديا" واستقر بعاصمة سيرتا بجبال الأوراس بالجزائر، " كما سك العملة من البرونز والنحاس لتسهيل التعامل التجاري داخل المملكة النوميديّة، كان يسعى في هذا الصدد إلى تكوين أمة حرة متماسكة مستقلة بحضارتها الذاتية ومعتزة بقوميتها البربرية. وبعد وفاته، خلفه ابنه **مسيبسا** (148-118 قبل الميلاد) فقام بتدعيم التبادل التجاري بين نوميديا وشمال حوض البحر الأبيض المتوسط، كما إستمر في الحفاظ على تماسك الإقليم التي كانت تقع في دائرة نفوذه "(22).

لا أحد يجادل في كون نوميديا توحدت في عهد **ماسينيسا** و**مسيبسا**، لكن الخلاف بين المؤرخين القدامى والمعاصرين قائم حول علاقة الملكين مع الرومان خلال مرحلة حكمهما.

فحسب سالوست SALLUSTE عامل روما على إفريقيا أواسط القرن الأول قبل الميلاد، عملت روما بعد هزيمة قرطاج وحليفها **سيفاكس** المعتقل على تمكين **ماسينيسا** حليفها في الحرب من كل الأراضي النوميديّة التي وبعد وفاته سيرتها ابنه **مسيبسا** MICIPSA ما بين 148 و 118 قبل الميلاد وكلاهما بقيا وفيين لروما "(23).

بماذا يمكن تفسير سكوت الإمبراطورية الرومانية عن حكم **ماسينيسا** وابنه **ماسيسا**، خاصة وأنها كانت دائمة الغزو لشمال إفريقيا وإطاحتها بحكم القرطاجيين سنة 146 قبل الميلاد؟

لم يكن الملكان عدوين لها بل حليفين ضعيفين ومراقبين من طرف روما، بل مستعدين لخدمة مصالحها مثل مشاركة قوات **مسيبسا** في حرب روما بإسبانيا وكذا تسهيل استقرار التجار الرومانيين بنوميديا الموحدة "(24).

فما كان يهم روما هو تدمير الإمبراطورية القرطاجية ووجود زعماء أمازيغ بشمال إفريقيا قادرين على توحيد نوميديا وغيرها في حدود ضمان المصالح الإستراتيجية لروما. وكما يقول **عبد الله العروي**: "...الأمر المحقق هو أن كل المبادرات كانت بيد مشيخة روما، بعد انتهاء الحرب البونيقية الثالثة سنة 202 ق م، كان الرومان يستطيعون في أي وقت توقيف أي حركة يشمون فيها خطرا على مصالحهم "(25).

(22) **عبد العزيز أكرير**: تاريخ... مرجع سابق - ص: 47-48  
(23) **العربي اكنيخ**: في المسألة... مرجع سابق: ص: 18  
(24) أنظر مقال:

**MOUNIR BOUCHNAKI**

Jugurtha, un Roi berbère et sa guerre contre Rome : h t t

8p//www.mondeberbere.com/civilisation/histoire/Jugurtha.htm.P: 2

(25) **عبد الله العروي**: مجمل... المرجع السابق: ص: 60

هذا ما سيحصل مع العديد من الزعماء أو الملوك الأمازيغ سواء بنوميديا الشرقية أو الغربية أو بموريطانيا أي المغرب. فأى مشروع إستقلالي يعتبر خطرا على المشروع الأمبراطوري الروماني وبالتالي يجب إقباره وتعويضه بأخر حليف لروما كما هو الشأن ليوغرطة وآخرين أتوا من بعده.

### • ثورة يوغرطن او يوغرطة من هو يوغرطن ؟

إنه حفيد ماسينييسا، ولد حوالي سنة 160 ق م وتوفي سنة 104 ق م. لقد عاش سقوط الأمبراطورية القرطاجية وبداية إستيلاء الرومان على شمال إفريقيا وطبيعة العلاقة المتسمة بتبعية جده ماسينييسا وعمه ماسينييسا للرومان، كما عاش في وضعية دونية لكون أبيه مستنبل **MASTANABAL** توفي وهو صغير السن ومن أم لم تكن زوجة شرعية. إلا أن هذا لم يمنع يوغرطة من الإستفادة القصوى من مكانة جده وعمه الذي تكفل به، حيث ومنذ صغره أبان عن كفاءات عالية في كل ما يرتبط بمشروع الزعيم الأمازيغي: الفروسية، الصيد، الحرب، الأخلاق العالية والشعبية الكبيرة بين القبائل الأمازيغية وهو ما جعل عمه الملك العجوز **ماسينييسا** يرسله سنة 134 ق م على رأس جيش من النواميد لمساندة الرومان في حربهم بإسبانيا أملا موته هناك بدل قتله ليخلو له الجو لاستخلاف ابنه **هيمسعل HIEMPSAL** و **أذربعل ADHERBAL** حسب قول **سان سيل** مؤلف كتاب " التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية (26).

كانت مشاركة يوغرطة في الحرب مع الرومان بإسبانيا وانبهارهم به إيذانا بتحويلات كبرى في حياة يوغرطة وإفريقيا الشمالية، بحيث ومنذ موت الملك **ماسينييسا** سنة 118 ق م، طرح مشكل الخلافة بحدّة على الرومان كذلك رغبة منهم في استمرار نفس السياسة والعلاقة معهم. لم يستطع الثلاثة أي **أذربعل ADHERBAL**، **هيمسعل HIEMPSAL** و **يوغرطة** الإتفاق على تقسيم المملكة، مما جعل **يوغرطة** يخوض الحرب المفتوحة ضد الجميع وعلى مراحل تمثلت في:

- التصفية الجسدية لهيمسعل **HIEMPSAL**
- المواجهة العسكرية مع قوات **أذربعل ADHERBAL** المدعوم سياسيا من طرف الرومان واغتياله بعد محاصرة مدينة سيرتا التي لجأ إليها سنة 113 ق م.
- التصفية الجسدية للتجار الرومان المتعاونين مع **أذربعل ADHERBAL** ومصادرة أملاكهم.
- التصفية الجسدية سنة 111 ق م بروما ل **ماسيفا MASSIVA** والذي يعتبر المرشح المفضل للرومان لحكم نوميديا.
- خوض الحرب ضد الرومان ابتداء من سنة 110 ق م وتكبيدهم خسائر وهزائم كبيرة اعتمادا على استراتيجية حرب العصابات وتدمير جميع المصادر المادية - مزارع، آبار - التي يمكن أن تستفيد منها القوات الرومانية (27)
- التحالف مع **بوخوس** ملك موريطانيا شمال المغرب لتحرير المناطق المحتلة من طرف الرومان: سيرتا مثلا.

لكن مسار الحرب سينتغير بحيث إستطاع الرومان سنة 105 ق م إقناع **بوخوس** بتسليمهم **يوغرطة** وإنهاء الثورة مقابل حصوله أي **بوخوس** على نوميديا.

وبإعدام **يوغرطة** سنة 104 ق م بروما، تم إجهاض الثورة الأولى للأمازيغ وطموحهم إلى الوحدة والدولة والإستقلال عن الرومان.

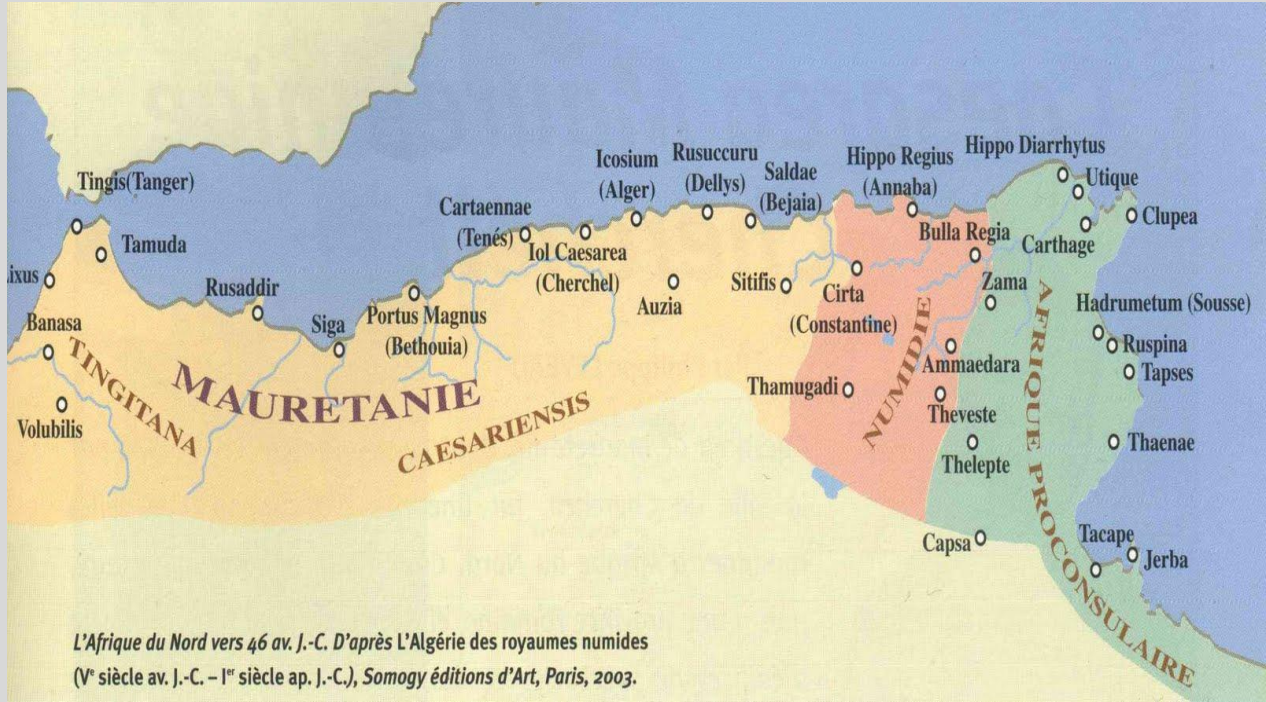
### 26) MOUNIR BOUCHNAKI : Jugurtha ... op.cit. P:3 -

- (27) حول هذه المرحلة، يقول **سالوست** " خلال حرب **يوغرطة** كانت جل المدن البونيقية تدار باسم الشعب الروماني من طرف حكام رومانين، بينما أغلبية أراضي نوميديا ومناطق جيتول **Gétules** حتى نهر ملوية تحت سيطرة **يوغرطة**، أما المور (أي الجهة الشمالية للمغرب) فيخضعون إلى الملك **بوخوس** الذي لا يعرف عن الرومان إلا الإسم ولا يعتبر بالنسبة إلينا لا عدوا ولا حليفا" **Idem . P : 5**



وبإعدام **يوغرتة** سنة 104 ق م بروما، تم إجهاض الثورة الأولى للأمازيغ وطموحهم إلى الوحدة والدولة والإستقلال عن الرومان.

## ما بعد يوغرتة



دول أمازيغ شمال إفريقيا سنة 46 قبل الميلاد

لقد شكل موت **يوغرتة** منعطفا كبيرا في حياة أمازيغ شمال إفريقيا من حيث العلاقات الداخلية بين مختلف الزعماء أو الملوك أو من حيث العلاقة مع الرومان، القوة الغازية.

فبينما كان **بوخوس الأول** المتوفى سنة 81 ق م حاكما على نوميديا الممتدة من نهر ملوية إلى تونس ومتحالفا مع الرومان، كان **أسكاليبس** الملك الموري يحكم الشمال الغربي للمغرب قبل أن يحكمها **بوغود** في إطار اقتسام السلطة مع **بوخوس الثاني** (49-33 ق م) الذي ورث السلطة على شرق المغرب وغرب الجزائر عن أبيه **سوسوس**.

إن ما يميز هذه الحقبة في تاريخ أمازيغ شمال إفريقيا هو قوة التقاطعات والتحالفات التي فرضها الوضع الداخلي بروما من جهة والحضور العسكري السياسي الروماني بشمال إفريقيا.

فالصراع الروماني الروماني- **القيصر** مع **بومبيوس**- بهذه المنطقة فرض على الزعماء والملوك الأمازيغ الاصطفاف مع هذه الجهة أو تلك حيث نجد **بوخوس الثاني** يتحالف مع القيصر ضد **بومبيوس** المساند من طرف **يوبا الأول** و**ماسينيسا الثاني** ثم ابنه **أرابيون** فيما بعد، وذلك ابتداء من سنة 49 ق م.

فبفضل الدعم العسكري القوي ل**بوخوس الثاني** استطاع **القيصر** هزم **ماسينيسا الثاني** والسيطرة على قرطبة / سيرتا Cirta أي على القسنطينة شرق الجزائر ثم الانتصار على **يوبا الأول** سنة 46 ق م

والتي على ضوءها إنتحر هذا الأخير وحصل **بوخوس الثاني** على جزء من ممتلكات ماسينيسا الثاني والتي تمتد من القسنطينة إلى موريطانيا شرق المغرب.

لكن حالة عدم الاستقرار كانت هي السمة البارزة منذ 46 ق م ، حيث امتد الصراع بين مختلف الزعماء الأمازيغ : **بوخوس الثاني**، **أرابيون** و**بوغود** إلى أن تمكن الأول وبعد تكبده لهزائم كبيرة من السيطرة على الأراضي الممتدة من شرق الجزائر - مملكة **أرابيون** - إلى المحيط الأطلسي - مملكة **بوغود** -

لقد لعب **بوغود** ملك طنجة وغرب المغرب أواسط القرن الأول قبل الميلاد أدوارا كبرى في السياسة المتوسطة:

- سنة 48 ق م، يعبر البحر لدعم **كاسيوس** حاكم اسبانيا ضد تمرد جيشه.
- سنة 45 ق م، يلعب دورا محوريا في انتصار القيصر الروماني باسبانيا على البومبيين.

بعد اغتيال القيصر سنة 44 ق م وقع اصطفاك جديد بحيث تحالف **بوغود** مع **ماركوس انطونيوس** ضد **اوكطافيوس** - خليفة القيصر - وحليفه **بوخوس الثاني**، وقام **بوغود** على ضوء ذلك بعبور البحر لمواجهة الحلفاء الإسبان **لاوكطافيوس** سنتي 41 و 38 ق م .

كانت نتيجة سياسة **بوغود** هذه مأساوية على سلطته بحيث ساهم أنصار **اوكطافيوس** الإسبان في دعم ثورة أهل طنجة عليه ، وهروبه إلى شرق البحر الأبيض المتوسط للالتحاق **بانطونيوس** بينما سيطر **بوخوس الثاني** على مملكته ومنحت روما سكان طنجة حق المواطنة الرومانية سنة 38 ق م (28) بعد وفاة **بوخوس الثاني**، عينت روما **يوبا الثاني** بفضل ولاءه الكبير لها واستقر بالعاصمة - قيصرية - التي بناها بالجزائر، حيث عمل على ازدهار الحياة الاقتصادية والتجارية حتى وفاته سنة 33 ميلادية.

في هذه السنة خلفه ابنه **بطليموس** الذي حاول الخروج من التبعية للرومان عبر توحيد قبائل الأمازيغ وتوسيع المملكة لكن الإمبراطور الروماني **كلودا** سيغته سنة 40 ميلادية ويتولى حكم المنطقة مباشرة حيث تم تقسيم شمال افريقيا إلى قسمين : موريطانيا الطنجية أي المغرب وموريطانيا القيصرية في الشرق أي الجزائر وتونس.

" أثناء القرنين التاليين - يقول **عبد الله العروبي** - لا نستطيع فصل تاريخ المغرب عن تاريخ الجيش الروماني الذي كان في الحقيقة تاريخ سلسلة من الثورات". (29)

يمكن تلخيص هذه الثورات كالتالي :

- ثورة **أيدمون** أحد وزراء **بطليموس** ما بين 40 و 44 ميلادية.
- ثورة **تاكفاران** أو **تاكفريناس** ما بين سنة 17 و 24 م والتي امتدت من طرابلس إلى المحيط حيث شاركت فيها موريطانيا الطنجية ( شمال غرب المغرب ).
- ثورة وانفصال موريطانيا الطنجية عن الحكم الروماني سنة 180 م.
- ثورة ناميديا - الجزائر - سنة 235 م.
- ثورة **فيرموس** بموريطانيا شرق الجزائر سنة 372 م.
- ثورة **جلدو** - **أخ فيرموس** الذي إنهزم سنة 396 م بعد انشقاقه عن الجيش الروماني سنة 393 م - حيث عمل على توزيع عقارات وأملاك الأباطور الروماني والنبلاء على الأهالي .

(28) لمزيد من التفاصيل حول مرحلة ما بعد ثورة يوغرطة أنظر:

- **عبد العزيز أكرير**: تاريخ ... مرجع سابق: ص 50 إلى 92
- **العروبي أكنينج**: في المسألة... مرجع سابق: ص 20 إلى 21
- **BERNARD LUGAN** : Histoire ... OP. Cit.
- ( 29 ) **عبد الله العروبي**: مجمل ... م . س . ص: 61.

- ثورة **الدوارين** الذين يستهدفون مستودعات الحبوب ويسرقونها ثم **الدوناتيون** - نسبة إلى **دونات** القس الأمازيغي الذي إنشق عن الكنيسة خلال القرن الثالث الميلادي - وانشقاقهم عن الكنيسة حيث تبنا ودافعوا عن قيم العدل والمساواة ضد الاضطهاد الروماني والكنيسي (30).

إن مشاركة الأمازيغ في الحركة الدوناتية المنشقة عن الكنيسة أخذت كما يقول **عبد الله العروي** " صبغة قومية واضحة دون أي اعتبار لمفهوم الكتلعة أي الجماعة محور كل مسيحية تكيفت مع واقع التفاوت الاجتماعي " (31).

- طوال الحكم الروماني الذي إمتد من 146 ق م الى 439 م لم سيتطع الرومان تحقيق الأهداف التالية :
- رومنة الأمازيغ أي جعلهم رومانيين رغم العنف والإستغلال وإيجاد زعماء محليين موالين ورغم منح حق المواطنة لبعض المناطق .
  - الإخضاع الكلي لشمال إفريقيا بحيث إقتصر حضورهم وبحسب الظروف على السواحل ومجالات حيوية وأمنة تمتد إلى جزء من الوسط وليس العمق والصحراء .
  - القضاء النهائي على أي نزوع وحدوي قومي للأمازيغ .
  - نشر المسيحية بين الأهالي رغم حداثة الدين الجديد وقوة الكنيسة .

وفي المقابل لم يستطع الأمازيغ رغم الزخم الثوري الذي وظفوه ضد الرومان تحقيق الوحدة والدولة القادرة على منع غاز آخر قادم على أنقاض الرومان أي الوندال .

### 3-الامازيغ في مواجهة الوندال والبيزنطيين

- طوال مرحلة الحكم الروماني لشمال إفريقيا إستطاع **الأمازيغ** الحفاظ على نار الثورة متقدة مما أسهم بالإضافة إلى العوامل الداخلية للأمبراطورية الرومانية في إضعاف هذه الأخيرة، لكن هذا لم يسمح للأمازيغ بالوحدة والدولة والإستقلال بل كان أهم فرصة **للوندال** المكونين من قبائل جرمانية للاستيلاء على إسبانيا كمقدمة لاحتلال شمال إفريقيا .
- فمنذ سنة 425 م بدأ **الوندال** بغارات دورية على مدن شمال المغرب للنهب والسلب واستطلاع المنطقة في انتظار العبور الكبير الذي تم سنة 429 م عبر احتلال طنجة وسبتة. وفي ظرف سنة واحدة أي 430 م استطاع **الوندال** هزم **الجيش الروماني** والسيطرة على الجزائر ثم احتلال قرطاج سنة 439 م وروما سنة 455م وكوسيكيا وصقلية وسردينيا سنة 456م. خلال مرحلة الغزو هذه كان الوندال بقيادة **جونزريش** يعتمدون على القوة الضاربة لقبائلهم الجرمانية وعلى الدهاء السياسي المتمثل في :
- تدمير القوات الرومانية وفك الارتباط بينها وبين الأمازيغ والسيطرة على المواقع الإستراتيجية للرومان شمال إفريقيا .
  - إستمالة الأمازيغ وإشراكهم في الحرب على عدوهم التاريخي .
  - عدم المس بالتنظيمات الأمازيغية السابقة واعتماد الإدارة غير المباشرة وهو وضع يوفر الجهد والمال والرجال لتحقيق أهداف الغزو ضد الرومان وفي نفس الوقت يغري الزعماء الأمازيغ بالمشاركة في الحرب أو على الأقل بقائهم على الحياد.
  - عقد إتفاقية سنة 435 م مع الرومان يتم بمقتضاها خضوع القائد الوندالي شكليا للأمبراطور الروماني مقابل سيطرة الوندال على الجزء الأكبر من شمال إفريقيا. لكن حسابات **جونزريش** كانت تهدف إلى إبعاد خطر القوات الرومانية لمدة معينة والتهييء العسكري لاحتلال قرطاج الذي تحقق سنة 439 م .

(30) لمزيد من التفاصيل حول الثورات انظر نفس المرجع .ص:61و62  
**العربي اكنيخ**: في المسألة...مرجع سابق. ص:6  
**(31) عبد الله العروي**:مجمل...مرجع سابق .ص:67

بعد السيطرة على قرطاج ونقل الحرب مع الرومان إلى أوروبا ، عمل **الوندال** على تصفية تركة **الرومان** بشمال إفريقيا عبر نهج سياسة التمييز العنصري واحتقار ما تبقى من الرعايا الرومان وكذا قمع ونفي الكاثوليك ومصادرة ممتلكاتهم وتدمير الحصون والمباني التي شيدها الرومان.

كان من نتائج هذه السياسة الجرمانية حسب **شارل أندري جوليان**: تدمير اقتصاد نوميديا وخلخلة التنظيم الاجتماعي، الاستغلال الأبشع للملاكين وتعسف السلطة وهو ما عجل بثورة البروليتاريا الزراعية - متأثرة بالدوناتية - على الملاكين فصادرت ممتلكاتهم ودمرت المدن كما ثار أمازيغ جبال الأوراس وهاجموا المدن وأفرغوها من سكانها حتى أضحت " مية " (32).

خلال المرحلة اللاحقة زواج الأمازيغ بين الثورة والتنظيم ضمن كتل قبلية كبرى مستقرة أفرزت زعماء وأمراء حرب واجهوا بقايا الوندال والغزو الجديد للبيزنطيين وأسسوا دولا وإمارات مستقلة من بينها:

- دولة موريطانيا بزعامة **ماسونا** سنة 508 م .

- توحيد المور المسيطرين على موريطانيا الطنجية بالمغرب وموريطانيا القيصرية الجزائر- ضمن قبائل كبرى تحت زعامة **أنطال** وتكبيدهم **الوندال** هزيمة كبرى سنة 530 م.

إلا أن **البيزنطيين** سيستغلون الضعف والوهن الذي أصاب **الوندال** وسيسيطرون من جديد على شمال إفريقيا فعمدوا في البداية إلى نهج سياسة إنتقامية من **الوندال** تمثلت في ما يلي :

- التصفية المادية لإرث الوندال : مصادرة الأملاك وإرجاعها للرومان ، تعويض الكنائس الآرية بالكاثوليكية، سبي النساء وجعل جنود الوندال عبيدا ...

- إعتقاد الإدارة غير المباشرة منذ 534 م: هيكل إداري يتميز بوجود وال على رأس الهيكل وتقسيم تونس والجزائر إلى سبع عمالات ....

- إعادة بناء الحصون والبنائات التي دمرها **الوندال**.

ورغم توجه الأمبراطور نحو سن سياسة مهادنة اتجاه الأمازيغ والتخفيف من عبء السلطة، فإن ثقل سلطة العمال على الأمازيغ إزداد حدة مع مرور الوقت بالموازاة مع العمل المباشر للجيش من اجل إسترجاع جميع الممتلكات السابقة للرومان وحمايتها من هجومات الثوار.

في مواجهة هؤلاء الثوار عمل **سولومون** القائد العسكري الروماني بشمال إفريقيا على نهج السياسة القديمة لروما أي استقطاب زعماء أمازيغ منافسين للزعماء الثوار . في هذا الاطار وظف التحالف مع الزعيمين **أورطاييس ORTAIAS** و**ماسوناس MASSONAS** ضد **أبادس IABDAS** زعيم الأوراس بالجزائر والقبائل الرحل. لكن شكه في ولائهما جعله يتراجع عن تنفيذ الخطة الأولى للاستيلاء على جبال الأوراس سنة 535 م، قبل أن يعود في المرة الثانية ليهزم **أبادس** ويستولي على منطقة الأوراس. نفس السياسة نهجها غريمه **ستوزاس STOZAS** الوندالي سنة 536 م أي الإعتقاد على أمازيغ نوميديا في الهجوم الفاشل على قرطاج قبل أن ينسحب نحو موريطانيا ويتزوج ابنة زعيم أمازيغي . في هذه المرحلة تشكل تحالف ثلاثي قوي لهزم الجيش الروماني وقتل **سولومون** سنة 545 م، هذا التحالف مكون من :

- قبائل **لواثة** بطرابلس التي قتل ثمانون من أعيانها على يد الدوق **سيرجيوس SERGIUS** ابن أخ **سولومون**.

- **32) CHARLE – ANDRE JULIEN** : Histoire de l'Afrique du nord, des origines à la conquête arabe.

Edition Payothèque. Paris. France

2<sup>ème</sup> édition. 1978. P. 253.

في هذا الصدد يقول **العربي أكنينج**: "وكان هؤلاء الجرمان أهل نهب وسلب، اتصفوا بالهمجية والعدوان (VANDALISME)- لذا قضا فترة إحتلالهم للبلاد في حروب وفتن مستمرة مع الأهالي ..." في المسألة...مرجع سابق: ص: 24.

- الزعيم **أنطالن** الذي قتل أخاه على يد **سولومون** رغم التحالف بينهما.
- بقايا الوندال تحت قيادة **ستوزاس STOZAS**.

وفي الجهة الغربية من إفريقيا الشمالية – نوميديا- سيثور الأمازيغ **المور** سنة 563 م كرد فعل على سياسة العامل الذي اغتال زعيمهم **كوتزيناكس CUTZINAS** الحليف الذي استعان به الجنرال الروماني **جون تروكليطا JEAN TROGLITA** لهزم **أنطالن**.

يتضح جليا ومنذ غزو الرومان سنة 146 ق م، أن القبائل الأمازيغية بشمال إفريقيا عاشت أوضاعا سياسية تتكرر باستمرار وتعيق أي تطور يتسم بالثورية ومنجته نحو الوحدة والدولة.

فما أن تشكل نواة تنظيم قوي بمنطقة ما حتى يلوح في الأفق التحدي الخارجي ليعمل على إجهاد الحلم في تجاوز الدولة أو الإمارة نحو مشروع الأمبراطورية الأمازيغية. وكلما ظهر زعيم قادر على هزم الجيش الغازي وتوحيد الأمازيغ، إستعان القادة الغزاة بحلفاء محليين لمواجهة في انتظار الإستغناء عنهم بل إقصائهم. وما أن يضعف غاز بفعل الثورات المحلية وغيرها حتى يظهر غاز آخر على الأبواب.

#### 4- الأمازيغ في مواجهة الغزو "الفتح" - العربي

- كخلاصة للجغرافيا السياسية بشمال إفريقيا منذ الغزو الروماني إلى الغزو العربي يقسم **عبد الله العروي** المنطقة إلى ثلاثة مغارب:
- **مغرب الصحراء:** " هذه الصحراء المعقل الذي لجأ إليها المغاربة المعارضون للرومان والوندال والبيزنطيين هي التي أثرت في تطور المغرب بسلبيتها، ونعني بالسلبية أن الحرية إقترنت حتما أُنذاك بالخروج عن نطاق الدولة وحيز التاريخ" (33).
- **مغرب الوسط:** هو المغرب الذي دخل التاريخ وتكونت فيه ممالك وحافظ على استقلاله زمنا طويلا قبل مجيء الرومان الذين إستغلوه، فعاش لمدة بدون ممالك قوية – سبع أو تسع إمارات فقط من بينها ويلي بالمغرب، الأوراس بالجزائر، إنطالن بتونس-(34).
- **المغرب المفتوح:** الخاضع. " نعني القسم الذي إحتفظت به روما إلى آخر لحظة قبل أن يرثه على التوالي الوندال والبيزنطيون ثم العرب... (ويضيف في مكان آخر)... لكن هناك أمرا مؤكدا هو أن المغرب المفتوح يمثل أغنى جزء في شمال إفريقيا، فالمفروض أن يكون سكانه أساس كل بناء إجتماعي، إلا أنهم كانوا في الواقع أفقر المغاربة وأكثرهم عرضة للإستغلال والهوان" (35).
- أما الوضعية العامة قبيل مجيء العرب بقليل فتتسم بما يلي:
- ضعف السيطرة البيزنطية بحيث إقتصر الوجود البيزنطي على بعض المواقع بالشريط الساحلي الممتد من قرطاج إلى طنجة.
- تفكك البنيات الاقتصادية والاجتماعية: تدمير الممتلكات الكبرى – الأراضي – بسبب الحروب وسياسة النهب لدى الوندال، ثورات العمال الزراعيين، نزوح العديد من القبائل الأمازيغية بسبب الحروب والنهب للاحتماء بالمجال الصحراوي والجبال الوعرة...
- محاولات الأمازيغ استجماع القوى والتشكل في إطار فيدراليات قبلية كبرى، وفرز زعامات وملوك بهدف مواجهة التحديات الآنية والمقبلة: **وزمار بن صقلاب** أمير مغراوة وزناتة، **سكريد وكسيلة** وإسحاق أمراء أوربة والبرانس، **الكاهنة** الجراوية زعيمة جراوة وزناتة، **جوليان** أمير غمارة.

(33) عبد الله العروي: مجمل .. مرجع سابق: ص112.

(34) نفس المرجع: ص 112.

(35) نفس المرجع: ص: 115 – 116..

يلخص **شارل أندري جوليان** كيف تمكن الأمازيغ من الحفاظ على هويتهم التي لم يستطع الرومان والوندال والبيزنطيون القضاء عليها والتي على العرب مواجهتها بالقول " ... فإن البربر سواء كانوا حضرا أو قرويين استرجعوا ما فطروا عليه من تعلق بالاستقلال السياسي. وكانت هذه الحاجة إلى التحرر السياسي ظاهرة بوضوح حتى في البلاد الخاضعة لبيزنطة (36).

إنها الوضعية التي سيعمل العرب مسلحين بالدين الجديد على مواجهتها خلال العقود اللاحقة، فكان عليهم تعبئة كل ما في وسعهم من قوة عسكرية وموارد لطرد البيزنطيين وإخضاع الأمازيغ حيث يشير المؤرخون إلى ما بين سبع وثمان حملات عسكرية نظمها العرب لغزو شمال إفريقيا قبل تأسيس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى.

إذا كانت الحملات العسكرية العربية هاته ضد الأمازيغ لا تختلف في جوهرها عن أشكال الغزو السابقة من حيث وسائلها وأهدافها:

- إقتران "الفتح" أي "نشر الإسلام" بالغنيمة والتوسع والإستيطان،
- الإقصاء دون الإستغناء عن سياسة الإدماج بهدف السيطرة على مناطق جديدة - مختلف مناطق المغرب الثلاث وإسبانيا -.
- الإعتماد على التحالف مع طرف أمازيغي ضد آخر،
- توظيف الأمازيغ بعد "تعريبهم" و"أسلمتهم" في بسط الهيمنة الإيديولوجية والسيطرة السياسية...

فماذا عن موقف الأمازيغ واستراتيجيتهم؟

عبر تتبع العلاقة الأمازيغية العربية، يمكن الوقوف على المراحل التالية لكن دون الإدعاء بكل مرحلة خالصة لذاتها بل قد تستوعب عناصر من مرحلة أو مراحل أخرى:

- مرحلة المواجهة القوية بين الأمازيغ والعرب أي المقاومة: **كسيلة البرنوسي والكاھنة البترية...**
- مرحلة التأثر بالدعوة الجديدة وتبني أو إجارة بعض الشخصيات العربية وكذا بعض المذاهب: إدريس الأول، المذهب الخارجي، المذهب الشيعي...
- مرحلة تأسيس الإمارات والدول والاستقلال عن الخلافة بالمشرق العربي:

○ دولة **بورغواطة** بمنطقة تامسنا أي ما بين مدينة الرباط وآسفي التي إستمر وجودها من سنة 743م إلى سنة 1148م حيث شكلت مصمودة المنتمية إلى قبيلة **البرانس** العمود الفقري لها بالإضافة إلى قبائل أخرى تنتمي إلى قبيلة البتر مثل زواغة وجرادة ومطغرة...

○ دولة **بني أبي العافية** المنتمية إلى قبيلة **التسول** من قبيلة **مكناسة** المنتمية إلى **البتر**: تأسست بشرق المغرب ما بين تازة وكرسيف حيث استطاع ملكاها **مصالة بن حبوس وموسى بن العافية** السيطرة على فاس على حساب الأدارسة على عهد يحيى حفيد إدريس الثاني الذي كان ملكا بفاس سنة 848م وكذا التوسع والسيطرة على شرق الجزائر.

- مرحلة الإمبراطوريات التي استطاع خلالها الأمازيغ: **البرانس** - المرابطون والموحدون - ثم **البتر** - المرينيون - من الاعتماد على كتل قبيلة كبرى: صنهاجة، مصمودة وزناتة، وكذا توظيف الدين لتوحيد شمال إفريقيا وإعلان عصر الإمبراطوريات.

(36) **شارل أندري جوليان**: تاريخ إفريقيا الشمالية، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، تعريب: محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص: 10.

- مرحلة فقدان السلطة لصالح العنصر العربي - سعديون وعلويون - الذي وظف الشرفاوية أي النسب الشريف للعودة بالسلطة إلى القبائل العربية القادمة من الغزو.

بالعودة إلى الوراء، قام العرب بعدة حملات عسكرية لإخضاع شمال إفريقيا حيث كان عليهم طرد البيزنطيين ونهج سياسة المواجهة مع الإمازيغ لكسر قوتهم ثم إدماجهم وتوظيفهم سواء ضد ما تبقى من البيزنطيين أو الزعماء الآخرين للأمازيغ.

فقبل السيطرة على تونس من طرف **عقبة ابن نافع** وتأسيس القيروان سنة 652 م ، قامت الجيوش العربية بالاستيلاء على العديد من المدن الليبية مثل سبيلطة وبرقة ومحاصرة البيزنطيين في مواقع محددة نتج عنها حصولهم على مكافأة مالية من البيزنطيين مقابل فك الحصار والعودة إلى ديارهم. وفي نفس الإطار قام العرب بشن حرب قوية ضد أهم كتلة قبلية بليبيا، أي **مغراوة** وإعتقال ملكها لتوظيفه بعد إسلامه في مشروع الغزو العربي حيث يقول **ابن خلدون** في هذا الصدد " ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي ، حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم **وزمار بن صقلاب** جد بني خزر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه " (37).

لقد شكلت الغنائم والمكافأة التي حصل عليها العرب من البيزنطيين، وكذا هزيمة مغراوة القبيلة الزناتية البترية - من البتر - قوة دفع للعرب من أجل التقدم نحو الغرب لطرد البيزنطيين من تونس والجزائر وكذا إخضاع الأمازيغ : **بتر وبرانس**، إلا أن هذا الهدف لم يكن سهلا المنال بالنظر إلى قوة القبائل الأمازيغية التي تتوفر على طاقات كبيرة لإنتاج زعماء قادرين على التعبئة والمقاومة مثل **كسيلة والداهية**.

#### 1-4 ثورة البرانس ضد العرب: كسيلة

بعد مقتل **عثمان بن عفان** وسيطرة **معاوية بن أبي سفيان** على الخلافة بدمشق وبموازاة



صورتان لكسيلة الاوربي البرنوسي

العمل على تصفية وإقصاء تيار **علي بن أبي طالب** قام **معاوية** بالالتفاف على مختلف القوى على

(37) **عبد الرحمان ابن خلدون**: تاريخ... مرجع سابق: ص 126 - 127.

لمزيد من التفاصيل حول التجاوزات المصاحبة للغزو العربي لشمال إفريقيا: **عنف** بمختلف أشكاله، **نهب**، **تدمير**، **سبي**، **تهجير**، **انتقام**... أنظر: **أحمد الزاهد**: الغزو العربي لشمال إفريقيا، بين نبالة النص ودناءة الممارسة. نشر وتصنيف: مؤسسة تاوالت. تامغناست. الجزائر.

والقبائل العربية بالجزيرة وغيرها وتوجيهها نحو شمال إفريقيا تفاديا لأي خطر مستقبلي على سلطته.

كانت أول حرب نوعية يقودها الجيش العربي بقيادة **عقبة بن نافع وأبا المهاجر** هي الحرب الدموية ضد قبيلة **أوربة** البرنوسية المستقرة بالجزائر والمغرب - نسبة إلى البرانس - بقيادة **كسيلة** الذي وبعد انهزامه يقبل الدخول في الإسلام والعمل كشریک **لأبي المهاجر**، حيث يقول **ابن خلدون** في هذا الصدد :

" وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عددا وأشد بأسا وقوة. وهم من ولد **أورب بن برنس** ، وهم بطون كثيرة ، فمنهم بجاية ونفاسة ونعجة وزهكوجة ومزياتة ورغيوة وديقوسة . وكان أميرهم بين يدي الفتح **سكريد** بن زوعي بن بارزت بن برزيات . ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وادرك الفتح الإسلامي، ومات سنة إحدى وسبعين وولي عليهم من بعده **كسيلة** بن لزم الأوربي فكان أميرا على البرانس كلهم . ولما نزل **أبو المهاجر** تلمسان سنة خمس وخمسين ، كان كسيلة بن لزم مرتادا بالمغرب الأقصى في جموعه من **أوربة** وغيرهم فظفر به **أبو المهاجر** وعرض عليه الإسلام فاسلم ، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه "(38).

إذا كان **أبو المهاجر** يتوفر على حس سياسي وإستراتيجي يؤهله لمعرفة كيف سيوظف **كسيلة** في تهدئة مختلف قبائل الأمازيغ وخاصة **البرانس** المتواجدة بالجزائر وأغلب مناطق المغرب فإن **عقبة ابن نافع** الذي عوض **أبا المهاجر**، أحدث انقلابا في العلاقة مع الأمازيغ باعتقاله **لكسيلة** والعمل على إذلاله أمام قومه خلال غزواته للمغرب الأقصى. يؤكد **ابن خلدون** أن **عقبة** تمادى في إهانة **كسيلة** المعتقل عندما أكرهه على سلخ شاة أمام أتباعه فكانت النتيجة أنه وبعد الرجوع إلى الجزائر قام **كسيلة** الذي استطاع الفرار بتجميع تحالف أمازيغي قوي وتدمير الجيش العربي وقتل **عقبة** بن نافع بمنطقة تاهودا بالجزائر سنة 683 م /64 هـ ثم الاستيلاء على القيروان بعد أن هرب منها العرب نحو ليبيا- برقة - بقيادة **زهير بن قيس البلوي (39)**.

بعد خمس سنوات من سيطرة **كسيلة** على القيروان استطاع **زهير بن قيس البلوي** المقيم بليبيا الحصول على دعم عسكري كبير من **عبد الملك بن مروان** الخليفة الجديد بدمشق وخوض معركة قرب القيروان ضد **كسيلة** الذي يتزعم البرانس والقبائل الأمازيغية كان من نتائجها: مقتل **كسيلة** سنة 686 م وهجرة الجزء الأكبر من قبيلة **أوربة** البرنوسية إلى منطقة زرهون بوليلي حيث استقرت إلى حين انتقل جزء منها إلى شمال تازة على عهد الموحدین بينما بقيت أجزاء أخرى شمال شرق مدينة فاس ومدينة القصر الكبير مثل ديقوسة ، رغيوة ، زهجوكة ، لجاية ، مزياتة ، نفاسة وونيجة (40).

#### 2-4 ثورة البتر ضد العرب: الكاهنة.

مقتل **كسيلة** كان سببا في تأجيج ثورة الأمازيغ من جديد وتم طرد العرب و**زهير بن قيس البلوي** نحو برقة بليبيا.

لم ينتظر الأمازيغ كثيرا حيث كان عليهم مواجهة الخطر العربي الذي لا يتراجع إلا للتهبيء وخلق شروط الحملة العسكرية القادمة ، فالتفوا حول زعيمة جديدة: **الكاهنة** بجال الأوراس بالجزائر وهي من قبيلة جراوة أي البتر.

(38) نفس المرجع. ص:173  
(39) نفسه:173

إلا أن **لعبد الله العروبي** رواية أخرى مفادها أن **زهير** طرد مع العرب من القيروان من طرف الأمازيغ بعد قتله **لكسيلة**: **مجمّل... مرجع سابق: ص: 124**. أما **برنار لوكان** فيعتمد رواية **ابن خلدون** أي فرار **زهير** والعرب ودخول الأمازيغ بقيادة **كسيلة** القيروان والسيطرة عليها لمدة خمس سنوات

**BERNARD LUGAN : histoire...op.cit.p :37**

(40) انظر: **عبد الوهاب بن منصور**: قبائل المغرب. الجزء الأول: لمطبعة الملكية. الرباط. 1968. ص: 313 - 314



لقد جهز **بنو أمية** قوة عسكرية مكونة من أربعين ألف رجل بقيادة **حسان بن النعمان** الذي إسترجع القيروان سنة 691م لكن السيطرة على قرطاج نهائيا لم تتم إلا ابتداء من سنة 698 م حيث كان عليه أن يخوض معارك كبيرة مع البيزنطيين الذين إسترجعوها منه سابقا قبل أن يفقدوها للمرة الأخيرة.



تمثال وصورة تقريبية للكاهنة الزناتية البترية

في هذا الإطار يقول **عبد الله العروي** " حارب **حسان** الروم طويلا وانتصر مرارا عليهم ناحية بنزرت ، حتى ظهر عنصر جديد ، هو تجمع البربر تحت قيادة **الكاهنة** الاوراسية بتحالف مع جماعات بيزنطية مسلمة . حينذاك خانه الحظ في مواجهات دارت في منطقة باغاي وتبسة فقرر الإلتحاق بطرابلس في انتظار أن يأتيه المدد من دار الخلافة " (41).

بسيطرتهم على قرطاج وتأسيس مدينة تونس من طرف **حسان** بن النعمان، ارتكزت إستراتيجية العرب - يقول **جون برينيون** - على فك الإرتباط بين البيزنطيين المتواجدين بالمدن وبين الأمازيغ. فالأفضل بالنسبة للبيزنطي سواء أكان تاجرا أو حرفيا العيش في وضعية الذمي بين ظهراني العرب الذين سيوفرون له الأمن والسلام ، بدل الخطر الذي يتهدده كلما ثار الأمازيغ على الإستبداد والإستغلال كما حدث مع الحركة الدوناتية والدوارين (42).

في مواجهة هذه الإستراتيجية العربية نفذت **الكاهنة** الإستراتيجية المضادة المركبة من ثلاثة

مجاور:

- إستجماع القوى بالمنطقة الآمنة بالغرب.
- إعتقاد الأرض المحروقة كما فعل **يوغرطة** في السابق.
- خوض المعركة الكبرى ضد **حسان** بمنطقة قابس

وبما أنها كانت تتوقع إمكانية الهزيمة ، فإنها حسب **بيرنار لوكان** وبعد أن هزمت الجيش العربي لمرات عديدة في معارك ثانوية، وبعد أن تأكدت من الهزيمة الكبرى بقابس، أمرت إثنين من أبنائها باعتناق

(41) **عبد الله العروي**: مجمل ... مرجع سابق: ص: 124.

42) **JEAN BRIGNON...: Histoire du Maroc. Librairie Nationale. Casablanca. 1990. P. 50**

الإسلام وفرت متبوعة بجيش **حسان** لتقتل بمنطقة توبنة قرب بئر ماء يسمى حاليا: **بئر الكاهنة**. لكن **جون برينيون** يقدم رواية أخرى وهي أن **الكاهنة** وبعد حصارها بالأوراس من طرف العرب طلبت من ابنها الاستسلام لهم وأقدمت على الإنتحار وهو السلوك المتبع منذ ذلك الحين من طرف زعماء أمازيغ آخرين للحفاظ على السلطة بيد العائلة على القبيلة (43).

بعد هذه النهاية البطولية والتراجيدية **للكاهنة** التي تحولت إلى شخصية أسطورية ، عمل العرب على إستكمال السيطرة على مختلف مناطق شمال إفريقيا وخاصة الغرب..

#### 3-4 إستكمال السيطرة العربية على المغرب: بداية ثورات جديدة

بمجرد تعيين **موسى بن نصير** واليا على الجزائر والمغرب سنة 704 م ، خلفا ل**حسان بن النعمان** عمل موسى على إخضاع المغرب وإسبانيا في ظرف سبعة عشر سنة رغم بقاء منطقة سبتة مستقلة وممنوعة على السيطرة العربية تحت قيادة الزعيم الأمازيغي **جوليان**.

وإذا كان **عبد الله العروى** يرجع هذه السرعة في السيطرة إلى عوامل كثيرة من ضمنها: سياسة اللين والإعتدال ل**موسى بن نصير** إتجاه الأمازيغ مما شجع زعماءهم على إعتناق الإسلام وترك أبنائهم تعبيرا عن حسن النية وكرهائن لدى **موسى بطنجة** (44).

وإذا كان **برنار لوكان** يرجع نجاح **موسى** في غزو المغرب والأندلس إلى السياسة الإدماجية التي تمثلت في تكليف الأمازيغ بأهم المسؤوليات المحلية كتعيين **طارق بن زياد** قائدا للجيش المكون من إثنتي عشر ألف أمازيغي أسلم حديثا لغزو إسبانيا في ظرف أربع سنوات (45)، فإن **أحمد بن خالد الناصري** لم يتردد في الربط بين الغزو والعنف وبين قوة الجيش العربي المكون من سبعة وعشرين ألف رجل وبين عملية الأسلمة حيث كتب يقول " ثم خرج **موسى بن نصير** غازيا أيضا، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعا وسبى سبيا عظيما وتوغل في جهات المغرب حتى إنتهى إلى السوس الأدنى... (و) ... أمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقہ " (46).

بدوره يصف **جون برينيون** سياسة **موسى بن نصير** بالمتجانسة ويقدمها كما يلي :

- إستهدفت العمليات العسكرية ضد القبائل قوتها المادية والبشرية: نهب، غنائم، فرائض، ثم رجال معتقلون يرسلون عبيدا إلى الخليفة بالشرق - دمشق - وبهذا يدمر قوة العدو المهزوم ويمارس سياسة الردع ضد الآخرين.

- إعتقال أبناء الزعماء والإحتفاظ بهم كرهائن في انتظار التأكد من استياعهم الإسلام وقناعتهم به ثم توظيفهم سياسيا ودينيا عبر تكليفهم بقيادة قبائلهم وأسلمتها.

- إدماج الأمازيغ المسلمين في الحرب بإسبانيا وإشراكهم في الغنائم والحصول على شرف الجهاد (47).

وتعليقا على سياسة **موسى بن نصير** يؤكد **عبد الله العروى** على أن الفتح وإن كان يعني إعتراف سكان المغرب بسيادة دولة الخلافة فإنه وعلى عكس سوريا والعراق اللتين تم تعريبهما على الأقل قرنين

#### 43) IDEM.P :50

(44) **عبد الله العروى**: مجمل ... مرجع سابق: ص : 124.

(45) **BERNARD LUGAN** : Histoire ... OP. Cit. P : 38 – 39.

(46) **أحمد بن خالد الناصري**: الاستقصاء لآخبار المغرب الاقصى ج: 2. منشورات وزارة الثقافة والاتصال. ص: 120\_121. (47) **J.brignon**. histoire...op.cit.p : 50.51

قبل الفتح " تطلب إسلام البربر وتعريبهم زمتا طويلا وتم قرونا بعد الفتح العسكري على يد أمراء بربر بعد أن إستقل المغرب سياسيا عن الشرق " (48).

يمكن كذلك تقديم تفسير آخر للسرعة التي إستطاع فيها **موسى بن نصير** غزو المغرب. إن المراجع التاريخية لا تتحدث عن كتل أو إتحدات قبلية تتوفر على زعامات قوية بالمغرب بإستثناء حالات معينة مثل الزعيم الأمازيغي **جوليان** بسبنة والذي لم يستطع **موسى بن نصير** إخضاعه علما أنه كان في السابق من حلفاء ورجالات **عقبة نافع**.

ومن الممكن القول أن قبائل **البرانس** التي كانت تستوطن المجال الممتد من مدينة تازة إلى الشمال الغربي - جبالا حاليا - والمحيط الأطلسي ثم جبال الأطلس والسوس، لم تفرز زعامات قوية مرتكزة على تراتبية إجتماعية صلبة لأنها لم تكن في حاجة إليها. فالخطر الخارجي أي الغزو لم يكن بالحدة التي عاشتها تونس والجزائر، هذا فضلا عن أن سلسلة الجبال بالريف والأطلس كانت ذرعا قويا واقيا يحمي ما وراءه من هضاب وسهول. أما قبيلة **أوربة** التي كانت من أهم قبائل **البرانس** التي واجهت العرب بالجزائر، فإنها وبعد هزيمتها ومقتل زعيمها **كسيلة** وتدمير قوتها البشرية والمادية، هاجر جزء مما تبقى منها إلى منطقة ويلي للإستقرار وإعادة بناء الذات التي إستمرت منذ مقتل **كسيلة** سنة 686م إلى لحظة إجارتها وبيعها لإدريس الأول.

شكل مقتل **كسيلة** بداية مرحلة جديدة في حياة القبائل الأمازيغية خاصة بالمغرب الأقصى.

**فينو أمية** الذين يسيطرون على الخلافة بالشرق ويفرضون على شمال إفريقيا تبعية سياسية عبر تعيين حكام وعمال مستبدين بالمنطقة، سيحتاجون إلى المزيد من الموارد المالية والبشرية للإبقاء والحفاظ على السلطة، وهو ما جعل العمال والحكام يفرضون على الأمازيغ مجموعة من التكاليف والضرائب منها ما هو شرعي كالخراج والزكاة ومنها ما هو غير شرعي كالجزية التي تفرض على غير المسلمين، والحال أن الكثير من القبائل والسكان أعلنوا إسلامهم. ولم يقتصر استنزاف الموارد عند هذا الحد، بل تعداه إلى محاولة استبدال الضرائب بالعبيد الذين كثر الطلب عليهم من طرف الخليفة الأموي بدمشق بسبب توقف الغزو وانحسار الموارد والغنائم...

شكلت سياسة بني أمية هاته دافعا قويا للقبائل الأمازيغية بشمال المغرب - **غمارة، كنامة، أوربة** - المنتمية كلها إلى القبيلة الأصل أي **البرانس**، من أجل الثورة على العمال نتج عنها:

- مقتل **يزيد بن أبي مسلم** الذي عين واليا على المغرب سنة 720م.
- مقتل **عمر بن عبید الله المرادي** سنة 740م على يد الأمازيغ بقيادة **ميسرة** الذي كان من غلاة المذهب الخارجي.
- هزيمة الجيش الأموي أمام الأمازيغ المغاربة في معركتين حاسمتين على نهر سبو ووادي شليف مما جعل **عبد الله العروي** يقدم الخلاصة التالية " بعد واقعتي شليف وسبو خرج شمال المغرب الأقصى نهائيا عن سلطة الخلافة " (49).

هذه الثورات وغيرها التي قام بها الأمازيغ لم تكن ضد الإسلام بل ضد العرب بما هم سلطة استبدادية إستنزافية. تبنى الأمازيغ المذهب الخارجي الذي يبنني على المساواة والعدالة، وامتدت

---

(48) **عبد الله العروي**: مجمل ... مرجع سابق: ص: 129

(49) نفسه. ص: 145 لمزيد من التفاصيل حول ثورة واستقلال الأمازيغ أنظر:

- **J. BRIGNON et autres** : Histoire du Maroc. Librairie Nationale. Casablanca. 1990. P :54... 57

- **BERNARD LUGAN** : Histoire ... OP . Cit. P :43 ... 45.

ثوراتهم من المغرب إلى تونس، حيث استطاعوا تأسيس مجموعة من الدول مثل دولة **بوغرواطة** بالشاوية سنة 743 م **دولة بني رستم** سنة 761 م بالجزائر و**دولة بني مدرار** سنة 757 م بسجلماسة بالمغرب، وبذلك ساهمت ثورتهم في تقويض أسس الدولة الأموية التي إنهارت لصالح الدولة العباسية بالشرق سنة 750 م وفي تأسيس دول كانت البداية لدول وأميراطوريات بالمغرب مستقلة تماما عن الخلافة بالشرق.

### III - قبيلة أوربة (البرانس) والأدارسة: الاستقلال المجهض

إن استئثار العباسيين بالخلافة بالشرق على حساب **بني أمية** جعل شمال إفريقيا ملجأ للعديد من العرب المطاردين أو المهزومين أو الناقمين حيث حاولوا الإستقلال عن العباسيين بتأسيس إمارات - **عبد الرحمان بن حبيب حفيد عقبة بن نافع** ما بين 745 م و 755 م بتونس، و**إدريس بن عبد الله** الذي فر إلى المغرب بعد تصفية شخصيات كبرى من عائلته بالحجاز مثل **محمد بن عبد الله، الحسين بن علي...**

بالنسبة ل**حفيد عقبة** ولولادة آخرين تم تعيينهم من طرف بني العباس كان **ابن رستم** رئيس الخوارج بالجزائر- **الدولة الرستمية** - حاجزا قويا ضد أي طموح يحول الإمارة إلى دولة قائمة بذاتها أو على الأقل الحفاظ على تبعية الإمارة إلى عرب بني العباس، وفي المقابل سيجد **إدريس الأول قبيلة أوربة** بزرهون مهياة لاستقباله وبيعه إماما. فحسب **برنار لوكان** " بلجونه عند قبيلة أوربة، قام إدريس بأحسن اختيار لأن هذه القبيلة هي بمثابة القطب لتحالف قبلي يشمل كل شمال المغرب الحالي: غيطة، غمارة، مكناسة، نفزة، سدراتة، زواغة، زواوة وزناتة " (50).

أما **الناصري** فيقول أن **أوربة** " شعب من شعوب البرانس، من ولد أورب بن برنس وتنقسم إلى عدة قبائل منها: ديقوسة، ورغوبة، وزهجوكة ولجاية ومزياتة ونفاسة ونيجة... وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عددا " (51).

إن قبيلة **أوربة** هاته وبالإضافة إلى الموقع الجغرافي الإستراتيجي الذي تحتله والقوة العددية التي تتوفر عليها فإنها كانت لا تزال تحتفظ بإرثها في التنظيم الاجتماعي والسياسي رغم مقتل زعيمها **كسيلة** بالجزائر وهجرتها إلى منطقة جغرافية أخرى حيث أفرزت تنظيما هرميا على رأسه **إسحاق بن عبد الحميد الأوربي** كأمير قادر بشخصيته القوية على تعبئة الجميع في مواجهة أي خطر خارجي يهدد القبيلة.

لقد استغل **إدريس** هذه الإمكانيات والطاقات لا لبيعه إماما فقط والتي تمت سنة 788 م ولكن لبسط سيطرة الدولة الإدريسية على المغرب جنوبا وشرقا حتى تلمسان، وهو ما تحقق خلال أربع سنوات فقط بفضل التحاق قبائل أخرى قوية مثل هواره، صنهاجة، زناتة المغرب الشرقي...

هذا النجاح في تأسيس دولة مستقلة عن بغداد وقادرة على التوسع في اتجاه المشرق العربي سيدفعان - أي النجاح والتوسع - **هارون الرشيد** إلى العمل على الحد من الخطر القادم من المغرب والذي يمكن أن يحيي الأمل لدى ورثة **علي بن أبي طالب** في الانقضاء على السلطة العباسية ببغداد، فأرسل **سليمان بن جرير الشماخ** الذي سمى **إدريس** بعد أن أصبح من أهم رجالات حاشيته وفر إلى بغداد سالما.

بمجرد وفاة **إدريس** سنة 175 هـ / 791 م وبما أن زوجته **كنزة الأوربية** كانت لازالت حاملا ،

50) BERNARD LUGAN : Idem : P : 49

وحول مذهب إدريس يرجح **عبد الله العروي** فرضية تأثره بالمذهب الشيعي المعتدل حيث اتجه اهتمام دعاة الزيدية إلى المغرب قبل مجيء إدريس الذي وهو يؤسس الدولة اعتمد على الحكمة والتبصر : **عبد الله العروي** : مجمل ... مرجع سابق: ص: 180 - 181.

51) أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. الجزء الثاني. منشورات وزارة الثقافة والاتصال. 2002. ص: 19. (هامش 29).

تكلف على التوالي كل من **راشد** - قبل اغتياله هو الآخر بنفس الطريقة - ثم **أبو خالد** خادمي **إدريس** بضمن استمرار السلطة وانتقالها إلى **إدريس الثاني** بعد ولادته ووصوله سن إحدى عشر سنة أي سنة 804 م /188 هـ..

بعد تمكنه من السلطة قام **إدريس الثاني** بنهج سياسة انقلابية على أخواله **أوربة** تمثلت في:

- (1) العمل على فك الارتباط مع الأمازيغ والاعتماد على العرب القادمين من شمال إفريقيا والأندلس اللذين سيتولون أهم المناصب العسكرية والقضائية والإدارية والسياسية الحساسة.
- (2) التصفية الجسدية ل**إسحاق بن عبد الحميد** الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس الدولة الإدريسية
- (3) الانتقال بمخزنه من ويلي إلى فاس التي شيدها سنة 808 م لآحداث القطيعة مع المجال السوسيوولوجي والنفسي الذي يرهن علاقته ب**أوربة** وكذا التخلص من الضغط السياسي والأمني والعسكري للأمازيغ والذي يمكن أن يشكل خطرا على سلطته .
- (4) الاستفادة من موارد اقتصادية كبيرة ومهمة توفرها منطقة سايس وبالتالي تحقيق الاستقلال الاقتصادي الذي يعزز الاستقلال السياسي عن الأمازيغ ومواردهم المادية.

حول هذه السياسة يقول **الناصري** :

" لما استقام أمر المغرب لإدريس بن إدريس ، وتوطد ملكه . وعظم سلطانه ، وكثرت جيوشه واتباعه . وفدت عليه الوفود من البلدان . وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان . فاستمر بقية سنة ثمان وثمانين ومائة (188/804) يصل الوفود ويبدل الأموال . ويستميل الرؤساء والأقيال . ولما دخلت سنة تسع وثمانين ومائة (805/189) وفدت عليه وفود العرب من إفريقيا والأندلس ، نازعين إليه وملتفين عليه فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس من قيس ، والأزد ، ومدحج . ويحصب ، والصدف ، وغيرهم فسر بقربهم فإنه كان غريبا بين البربر ، فاستوزر منهم **عمير بن مصعب الأزدي** المعروف بالملجوم... وكان **عمير** من فرسان العرب وسادتها، ولأبيه **مصعب** ماثر بافريقية والأندلس ومواقف في غزو الفرنج . واستقضى منهم **عامر بن محمد بن سعيد القيسي**... واستكتب منهم **أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي** ". (52).

أما **عبد الله العروي** فيرجع هذه السياسة إلى طموح **إدريس الثاني** إلى تحويل الإمامة التي مضمونها الدعوة والجهاد إلى الإمارة التي تعني السلطة بمحتواها الكامل والفعلي حيث يقول في هذا الصدد " كان **إدريس الأول** في كفالة من أجاروه. فكان لا يتخذ قرارا إلا بعد استشارة رؤساء القبائل وخاصة قبيلة **أوربة** . لاشك أن **إدريس الثاني** المولود في المغرب من أم بربرية ، تضايق من هذا الوضع وأراد ان يحول الامامة الى إمارة فاتخذ حرسا خاصا به مكونا من خمسمائة فارس من العرب الوافدين عليه من الأندلس وإفريقيا (أي تونس) (53).

بوفاة **إدريس الثاني** سنة 828 م أو 829 م ستدخل الدولة الإدريسية مرحلة الأزمة وتعدد الإمارات في انتظار قادم جديد يؤسس دولة على أنقاضها. أما **أوربة** وبمقتل زعيمها **إسحاق بن عبد الحميد** ستدخل في مرحلة أخرى من حياتها الاجتماعية والسياسية حيث بقي معظم أجزاء القبيلة بناحية القصر الكبير وشمال فاس وتاونات بينما سينتقل في وقت لاحق جزء آخر من ويلي إلى شمال مدينة تازة محافظا لوحده على الاسم الأصلي للقبيلة أي **أوربة** التي تمثل حاليا ريع قبيلة **البرانس** بنفس المنطقة.

(52) نفس المرجع : ص: 31

(53) **عبد الله العروي**: مجمل ... مرجع سابق. ص: 183  
وحول طبيعة العلاقة بين **أوربة** و**إدريس** يشير محمد الرافعي البرنوسي إلى تبني واستعمال **إدريس** للعلم الأحمر الذي كانت ترفعه قبيلة **البرانس** خلال حروبها.  
Mohammed ER-RAFIA AL BARNOSSE : SOUVENIRS...OP.Cit. P : 122

قبيلة **أوربة** وبعد آن لعبت على عهد زعيمها **كسيلة** بالجزائر دورا محوريا في مقاومة الغزو الروماني والعربي، ثم بعد هجرتها إلى ويلي - في تأسيس الدولة الادريسية، ستهاجر من جديد إلى تازة تاركة لقبيلتي صنهجة ومصمودة من قبيلة البرانس الأصل ، دور تأسيس الدولة المرابطة ثم الموحدية انطلاقا من الجنوب المغربي .

خلال القرون اللاحقة اقتصر دور قبيلة **البرانس** بشمال تازة والتي تضم قبيلة **أوربة** على الحفاظ على أمنها وحياتها الاجتماعية والسياسية الخاصة بها ضد أي اعتداء خارجي أو أي استبداد واستغلال يأتي من السلطة المركزية ، إلا انه ومع أواخر القرن التاسع عشر سيبدأ المؤرخون في ذكر اسم القبيلة - **البرانس** - مرتبطا بالتمرد والثورة واستضافة مجاهدين ومدعين للعرش ضد السلطة المركزية.

#### **IV- البنيات الاجتماعية والسياسية للبرانس خلال العصر الحديث** **1- سياق عودة البرانس إلى الواجهة**

بالرغم من أن العديد من القبائل الامازيغية المنتمية إلى القبيلة الأصل **أي البرانس**، اتخذت لنفسها اسما خاصا بدول شمال إفريقيا، كما هو حال قبائل مصمودة، صنهجة، زايان، كتامة، غمارة... فإنه وحسب المعطيات المتوفرة لازالت بعض المجموعات السكانية بمنطقة **أكادير وجبل زرهون وطنجة** تحتفظ بالاسم الأصلي **أي البرانس**.

وفي المقابل نجد بشمال تازة اكبر مجموعة اجتماعية عبارة عن كونفدرالية قبلية تحتفظ بالاسم الأصلي، **البرانس** وتتكون من أربعة قبائل كبرى هي **أوربة** التي نزلت في وقت سابق - عهد الموحدين على ما يعتقد - من جبل زرهون إلى شمال تازة، و**بني بويغلا** و**بني فقوص والطايفة**.

يرجع **عبد الرحمان المودن** حالة الحفاظ على التسمية الأصل رغم توافد جماعات أجنبية على القبيلة إلى عوامل عدة منها : درجة الالتحام بالنسبة للقبلية والدفاع عن الرصيد التاريخي المشترك ، والموقع الجغرافي أي المرتفعات التي تستوطن فيها ، حيث يقول :

" بيد أن استمرار نفس التسميات ، بالرغم من الاختلاط التّسبي قد يدل بالنسبة للمجموعة المعنية ، على درجة من الالتحام ، تستوعب الوافدين الجدد ، الذين يضعون من الانخراط تحت التسمية الواحدة، علامة على دفاعهم عن رصيد تاريخي مشترك . فهل من الغريب أن تتواجد القبائل التي حافظت على تسمياتها منذ الأدارسة على الأقل، في مناطق المرتفعات حيث من الواضح انه يسهل الالتجاء والتحصن؟ تلك حالة كل من غيابة، تسول والبرانس. وتلك أيضا حالة سدارتة التي ذكرت غير ما مرة على عهد الأدارسة " كقبيلة " ونجدها اليوم ضمن مجموعة الحباينة، وقد أصبح اسمها يطلق على المناطق المرتفعة من مجال هذه القبيلة فتسمى جبل سدارتة " (54).

ويضيف في مكان آخر "تمة كتلة قديمة تتمثل في ساكنة المرتفعات الشرقية ، غيابة ، تسول ، البرانس مكناسة وهي المجموعات التي لم ترح مكانها والتي هي العمود الفقري بالمنطقة " (55).

أما **الحسن الوزان** الملقب **بليون الإفريقي** فيقدم صورة مركزة عن قبيلة البرانس خلال العهد المريني وتمثل في:

- الطابع الجبلي لمنطقة البرانس
- الثروات الفلاحية الغنية
- جمال وأناقة النساء
- الطابع الحاد والحساسية القوية اتجاه أي اعتداء على شرف القبيلة .
- الموقف المعارض للمخزن : عدم تأدية الضرائب حيث يقول :

"**جبل البرانس**: يقع هذا الجبل على بعد خمسة عشر ميلا شمال تازا وتسكنه قبيلة غنية قوية

(54) **عبد الرحمان المودن**: البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن 16 و 9. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995، الطبعة 1، الصفحة 141.  
(55) نفس المرجع، الصفحة 145

تملك الكثير من الخيول ولا تؤدي أية ضريبة. ينبت كثير من القمح في هذا الجبل ، وتنتشر فيه حدائق وكروم العنب الأسود ، لكن لا تعصر فيه خمر. نساء هذا الجبل بيضاوات بديئات يتزين بكثير من حلي الفضة لأن القوم أثرياء. والرجال غضوبون حقا ودووو جرأة كبيرة. فالويل لمن يغامر مع نسائهم وكل إساءة أخرى تتضاءل عندهم أمام هذه الإساءة " (56).

مع مطلع القرن التاسع عشر أصبح شمال إفريقيا مجالا للصراعات الجيوستراتيجية للقوى الأوروبية خصوصا وان ميزان القوى بينها وبين دول المنطقة كان مختلا لصالحها. هذه الصراعات أدت إلى العديد من النتائج كان من أهمها :

- احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م.
- تكثيف الضغط الدبلوماسي على المغرب المنهزم في حرب اسلي ضد فرنسا سنة 1844م من خلال فرض عدة اتفاقيات تنتهك سيادة المخزن على الأرض والسكان .
- المساهمة في إحداث القطيعة فيما تبقى من علاقة بين المخزن والجزء الأكبر من المجتمع : نظام الحماية الذي اخرج فئات عديدة من ضمنها الأعيان وزعماء الزوايا وغيرهم من سلطة المخزن ، ظهور حركات جهادية بزعامات تطمح إلى الجمع بين الجهاد ضد فرنسا واسبانيا وبين الثورة على استبداد المخزن والطموح إلى الاستيلاء على السلطة.

لقد حضرت قبيلة البرانس بقوة وذكر اسمها في العديد من المحطات التي تكثفت فيها الأزمة السياسية بين المجتمع والسلطة ثم بين المجتمع والاستعمار لاحقا.

## 2- البنيات الاجتماعية للقبيلة

مع منتصف القرن التاسع عشر وضع المغرب تحت مجهر القوى الأوروبية تمهيدا لاحتلاله. فتصاعدت وثيرة جمع المعلومات عن مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية والطبيعية.

في البداية كان الجوالون والمسافرون والمستكشفون والمخبرون مثل دو زيكونزك DE ZEGONZAC وشارل دو فوكو CHARLES DE FAUCAULD وغيرهم، يجمعون المعطيات. بعدها أتى دور الباحثين أمثال ميشو بيلير قصد انجاز دراسات حول المجتمع والدولة تتوفر فيها الشروط العلمية ولو أنها تخدم المصالح الفرنسية ثم دور الأطر العسكرية والسياسية الفرنسية التي أعطيت إليها تعليمات صارمة لانجاز مونوغرافيات أي قاعدة معطيات دقيقة حول المنطقة التي يحكمونها بهدف إحكام السيطرة الفعالة وبأقل الخسائر.

وبالاطلاع على هذا الرصيد المعرفي فانه وبغض النظر عن الأهداف الإيديولوجية والسياسية التي يرمي إليها ، فان أي دراسة حالية لا يمكن أن تستغني عن هذا الرصيد من حيث غزارة المعطيات والمعلومات التي يقدمها بشرط التعامل معه بحذر وب عقل نقدي.

فيما يخص قبيلة البرانس وعلى عكس العديد من القبائل بالريف ، وبالشمال الغربي، بجبال الأطلس والجنوب التي نالت نصيبها من دراسات قيمة فإنها أي البرانس وعلى حد علمنا لم تخضع للدراسة من طرف الفرنسيين قبيل الاستعمار .

فما يتوفر حاليا هو بعض الكتابات العسكرية عن مجريات المعارك العنيفة والمتعددة التي خاضها الجيش الفرنسي لإخضاع قبيلة البرانس منذ دخوله تازة إلى نهاية حرب الريف سنة 1926م، وكذا مونوغرافية أنجزها ترينكا يمكن الاعتماد عليها وعلى التراث الشفهي الذي تحتفظ به الذاكرة الجماعية للقبيلة وبعض الاطروحات الجامعية.

---

(56) الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا. الجزء 1. الطبعة 2. ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي. الصفحة 357.

في الماضي يقول **ترينكا TRENGA**، كانت **البرانس** تتكون من خمسة فرق - **قبائل** على الأصح - هي **بني بويغلا، أوربة، بني فقوص، الطايفة وبني امحمد** التي اختفت وما تبقى منها ألحق ببني بويغلا وبالتالي أصبحت البرانس تتكون من أربعة أرباع:

- تتكون قبيلة **بني بويغلا** من ثلاث فرق هي: الفزازرة، أهل الصخرة، حجر عبد الله ليضاف إليهم: أولاد بوسعدن، بني امحمد وباب العشوب.
  - تتشكل قبيلة **أوربة** من خمس فرق: الترابيين، بني خلاد، أولاد رحمون، أولاد عبو وأولاد عيسى.
- تتكون قبيلة **بني فقوص** من خمس فرق: بني افتاح، أولاد جرو، الترابية، اللخالحة وأولاد حدو.

تضم قبيلة **الطايفة** خمس فرق كذلك: تيليوان، بوهليل، بني ورياغل، الشقارنة، أولاد سيدة. (57).

يلاحظ أن كل قبيلة على حدة تتشكل من خمس فرق وكل فرقة داخل القبيلة تحتوي على عدد من العائلات الكبرى والصغيرة وبالتالي ساكنة متناسبة مع ما هو موجود لدى الفرق الأخرى مع بعض التفاوت الذي لا يهدد التوازن بين هذه الفرق أو تلك. وحتى إذا حدث أن وقع تهديد لفرقة لا تتوفر على نفس الإمكانيات المادية والبشرية للدفاع عن نفسها، فإن آلية التحالف تتحرك بناء على مفهوم "الخوت".

بقبيلة **بني فقوص** كمثال كانت إمكانية التحالف والتقاطبات ما بين الفرق المكونة لها: فرق الترابية وأولاد حدو والخالحة كحلف قوي في مواجهة حلف فرقتي بني أفتح القوية وأولاد جرو القليلة العدد بالمقارنة مع فرقة الترابية.

إذا كان التحالف أو اللف على مستوى ضيق يحمي التوازن، فإن هناك آليات أخرى تتدخل في اللحظة المناسبة للحد من التداخيات الخطيرة للتحالف أو اللف. فكل حرب بين التحالفين قد يجر القبائل الثلاث الأخرى أي **أوربة وبني بويغلا والطايفة** إلى الاصطاف مع هذا الطرف أو ذاك. وهو ما لا يقبله الجميع بحيث يضعف من قوة ومكانة **كونفدرالية البرانس** ككل أمام القبائل الأخرى والمخزن. لذا نجد الحضور القوي لمؤسسة " **اجماعة** " و**بولرباع**، وكذا الشرفاء أو ممثلي الزوايا، كجهازين احدهما سياسي والآخر ديني يتدخلان لفض النزاع وإقرار الصلح بين الأطراف وتحقيق الأمن واستمرار التوازن.

إن هذه القبائل الأربع هي التي تشكل مجتمعة الوحدة الاجتماعية الأكبر أي **كونفدرالية البرانس** التي تحدها العديد من القبائل الكبرى على ضفتي ممر تازة وهي: **مكناسة، التسول، مغراوة كزناية وصنهاجة**. منها من هو معرب بشكل كبير ومنها من لا زال أمازيغيا كحالة مغراوة وكزناية.

إن كنفدرالية البرانس وكما هو الشأن بالنسبة لقبائل مجاورة مثل مكناسة والتسول ومرنيسة وصنهاجة قد فقدت الكثير من لغتها الأمازيغية تحت ضغط تأثير القبائل العربية التي تم استقدامها إلى المغرب بهدف توظيفها عسكريا وسياسيا من طرف مختلف الدول المتعاقبة على الحكم وكذا تحت تأثير مختلف الزوايا ورجال الدين والفئات الاجتماعية التي تدعي الدين أو تحتكر لقب " الشرفاء ".

إذا كان فقدانها لجزء كبير من ارثها اللغوي الأمازيغي فهل فقدت قبيلة البرانس " المعربة " تقاليدتها في التنظيم الاجتماعي والسياسي؟.



عند الرجوع إلى إسهامات الباحثين سواء كانوا أجنب أو مغاربة أمثال: روبرت مونتاني ROBERT MONTAGNE وكيرلو QUERLEUX و**علي المحمدي والتبياري بوعلسة** وغيرهم من الدارسين الذين اهتموا بالمجتمع القبلي، يتضح أن القبائل الأمازيغية سواء تلك التي تعربت مثل غمارة ومصمودة بالشمال الغربي للمغرب أو قبائل زمور وزايان وايت باعمران التي لم يطلها التعريب، تكون الخلاصة هي أن القبائل ذات الأصل الأمازيغي ومنها البرانس كانت قبيل الاستعمار تحتفظ بنفس البنية الاجتماعية السياسية والثقافية التي تتواجد بقبائل أمازيغية بالسوس والأطلس والريف.

تشكل البنية الاجتماعية للبرانس من المستويات التالية: العائلة كوحدة أولية ثم الفخدة أو الفرقة ثم القبيلة ثم الكونفدرالية.

البرانس ككونفدرالية تتكون من أربع قبائل كبرى: أوربة، بني بويعلا، الطايفة وبني فقوص. **قبيلة بني فقوص** كمثال يعمم على القبائل الثلاثة الأخرى مع بعض الاختلافات البسيطة، تتشكل من خمس فرق: بني أفتح - أولاد جرو - الترابية - اللحاحة وأولاد حدو.

**فرقة أولاد جرو** كمثال تحتوي على عائلات كبرى وأخرى متوسطة وثالثة صغيرة تحكمت في عدد أفرادها ظروف متعددة منها تاريخ الاستقرار بالمنطقة، عدد الأفراد النازحين من مواطنهم الأصلية نحو بلدة الاستقبال، القدرة على الاندماج مع المجموعات والعائلات المستقرة، توفر عوامل وشروط العيش كالأرض والعمل ...

### العائلة:

إن العائلة الصغيرة أي الأسرة وان كانت هي النواة الأولية للبنية الاجتماعية في الحفاظ على استمرارية الإنتاج: التوالد، العمل، الأمن فان أدوارها هاته لا معنى لها إلا في إطار أوسع أي العائلة الموسعة، **الإحس** عند القبائل الأمازيغية أو **العضم** لدى المعربة.

نجد على رأس هذه الوحدة الاجتماعية رب العائلة ثم يليه الأبناء والأحفاد ضمن تراتبية داخلية تتحكم فيها عوامل السن والجنس والجاه والثروة. كل هذا يتحدد من خلال النسب الأبوي المحدد لأي انتماء وكذا من خلال العلاقة مع المجال أو المكان. فكل عائلة، بمعناها الأوسع، تسكن حسب عدد الأسر أو الكوامين، مجموعة من المنازل قريبة من بعضها البعض إلى حد يصعب التمييز فيما بينها في بعض الأحيان، وتستغل أراض ضمن نشاط اقتصادي يومي تشارك فيه كل اليد العاملة المتوفرة لدى العائلة، التي قد تستعين بإفراد أجنب بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة، بحيث نجد بعض رؤساء العائلات الذين لهم جاه وتأثير يتوفرون على خدام أو أسر صغيرة نزحت من قبائل مجاورة يقدمون خدماتهم مقابل الحماية. طبعا هؤلاء الأجنب لا يمكن الاعتماد عليهم في آلية التضامن العائلي التي تبقى حكرا على أفراد العائلة بالنسب الأبوي.

إن مؤسسة الزواج التي تتميز على العموم بطابعها الداخلي أي الامتناع عن الارتباط بين فردين لا ينتميان لنفس العائلة لتعتبر أحسن ضمانا للحفاظ على بنية النسب وحتى على الممتلكات والأموال.

هذا فيما يخص العائلة الموسعة المستقلة بنسبها والمنتمية إلى جد واحد محدد ومعروف، لكن الوضع يختلف كثيرا عندما يكون هذا الجد الأصل عاش خلال ثلاثة أو أربعة قرون سابقة كما هو الشأن بالنسبة لبعض العائلات مثل: الخضر، المرارحة، الهزلة ...

في هذه الحالة تصبح التحديدات السوسيوولوجية أوسع:

- تتحدد العلاقة مع المجال من خلال سكن فروع من العائلات الكبرى بأكثر من دوار.
- ينتقل الزواج بين فردين من المجال الضيق أي العائلة وأبناء العمومة إلى مجال أرحب: داخل نفس العائلة الكبرى مثل الهزلة، المرارحة، أهل الواد ... ثم في ما بين هذه العائلات.

ويحدث أن يكون الزواج ما بين أفراد من عائلة تنتمي إلى فرقة أولاد جرو وبين أفراد من عائلات تنتمي إلى فرقة أخرى - بني أفتح مثلا - أو قبيلة أوربة أو بني بويغلا وهو ما يعكس ذلك الارتباط القوي بالقبيلة الأصل قبل النزوح والاستقرار بالبلدة الجديدة. وهذا استثناء عكس ما ذهب إليه **تريينكا** حين اعتبر أن القاعدة العامة هي الزواج ما بين الفرق **FRACTIONS** وما بين القبائل **TRIBUS** بهدف تلافى الخلافات والنزاعات داخل الفرقة الواحدة وضمان عدم المطالبة بالإرث، وأعطى مثلا كيف أن العائلات المنتمية إلى أولاد بن عزوز التي كانت استثناء أصبحت تفضل الزواج الخارجي عن الداخلي لخلق التحالفات مع عائلات أخرى. (58).

إذا كان هذا التحول صحيحا فإن **تريينكا** أغفل وقائع عديدة منها:

- إن العائلات التي كانت تربط نسيبها بالشرف - المرابطون والشرفاء - وحفاظا على صفاء ونقاء النسب لم تكن مستعدة لقبول أي زواج خارج العائلة الكبرى. هذا الموقف نجده كذلك لدى العائلات العريقة والغنية بهدف الحفاظ على سلالة ومكانة وممتلكات العائلة.
- إن العائلات المنتمية إلى المرابطين والشرفاء ورغم قبولها المتأخر بالزواج الخارجي بهدف خلق التحالفات فإنها تمسكت بالحفاظ على ممتلكات العائلة مجتمعة عبر حرمان الأنثى من الإرث بوثيقة مكتوبة، وهو حال كذلك العديد من العائلات العريقة والغنية التي ورغم غياب وثيقة مكتوبة رسمية فإن الإخوة الذكور يتلكئون ويرفضون تمكين الأخت من الإرث.

تتحرك آلية التضامن العائلي بشكل تصاعدي وموسع حسب نوع الخطر ودرجته ومصدره، يشبه الدوائر التي يحدثها رمي الحجر ببركة ماء.

فكلما كان الخطر خارجيا تعبأت كل مكونات العائلة الكبرى بغض النظر عن الدرجة التي يوجد فيها الجد. ويصبح التضامن على مستوى الفرقة في مواجهة فرقة أخرى، وعلى مستوى القبيلة في مواجهة قبيلة أخرى وعلى مستوى الكونفدرالية عندما تواجه البرانس ككل جيرانها مكناسة أو التسول مثلا وعلى مستوى اللوفوية مع التسول ومكناسة وغيانة وغيرهم ضد المخزن أو الاستعمار.

إذا ما هي المؤسسة التي تسهر على هذا التضامن بين مكونات القبيلة ، وتعبئة إمكانياتها المادية والبشرية ضد العدو الخارجي؟.

إنها مؤسسة " **بولرباع** " التي تحمل اسم **انفلاس** أو **ايت الأربعين** لدى القبائل الأمازيغية بالجنوب والأطلسين الصغير والكبير.

قبل الحديث عن بولرباع كمؤسسة سياسية للفرقة التي تحمل أسماء مختلفة بمناطق أخرى: تاقبيلت بالجنوب ، **الخميس** بجباله والريف، **العرش** بمنطقة جرجورة بالجزائر، لابد من التطرق إلى **أجماعة** وهي الوحدة الاجتماعية الأدنى التي تعتبر أساسية في تحديد المستويات الأعلى من التنظيم السياسي للقبيلة.

### مؤسسة اجماعة: الدوار

يعتبر الدوار أو الدشر - تادشرت بالجنوب - ذلك المجال الجغرافي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، الذي تستوطنه عائلتان فأكثر وبعض الأسر الصغيرة الأجنبية التي تعيش في حمايتها.

تقطن هذه العائلات بشكل مستقل عن بعضها البعض بمواقع استراتيجية أي الثلث الأخير والأعلى من الدوار مما يمكنهم من ضمان الأمن ضد أي اعتداء خارجي وكذا مراقبة الموارد الاقتصادية : مصادر وعيون الماء، الزراعة، المواشي، البساتين والحدائق التي تنتج الفواكه والخضروات ...

يحمل الموقع الذي تقطنه العائلات غالباً اسمين لكن قد يغلب استعمال احدها على الآخر: **اشخادة** نسبة إلى جدهم **شخاد**، **امزاية** نسبة إلى جدهم **المزوري**، **امزازرة** نسبة جدهم **مزور**... وهي أسماء للعائلات بدل **هسكورة** وهو اسم لجبل. كذلك نجد أسماء مثل **دوار عين الثلاثاء** الذي اخذ الاسم من واقعة سوق كان يعقد قديماً يوم الثلاثاء ، ودوار **باب جنان** يرجح أنه مرتبط بالجنان أي البستان الكبير المتواجد بالدوار ... كما أن هناك أسماء أمازيغية بحتة مثل **باب امسوان**، **أغرم**، **أكوف**...

على مستوى دوار أو دواوين تتشكل مؤسسة **أجماعة** من ممثلي العائلات تقوم بالتسيير الإداري للقضايا التي تهم الدوار أو الدواوين مثل توزيع التكاليف والأشغال التي على كل عائلة تأديتها أو القيام بها:

(1) صيانة المسجد وتعيين الفقيه وتحديد النوبة أي الأكل اليومي للفقيه، والشرط أي ما على كل عائلة تقديمه كأجر سنوي للفقيه وغالباً ما يكون من المنتج المحلي كالحبوب.

(2) تنظيم عملية توزيع الماء على المستحقين بناء على معيار نسبة الأراضي القريبة من مصادر المياه، وصيانة هذه الأخيرة وكذا الساقية الجماعية.

(3) تعيين " الحطاي " أي حارس الجنان، وتحديد أجرته بناء على كمية كل نوع من الأشجار: زيتون، تين، عنب...

(4) صيانة المقبرة وحمايتها ومنع الرعي فيها وإتلافها.

(5) تنظيم عملية الرعي بأراضي البور إذا لم تكن ملكيتها مقسمة بين العائلات.

(6) حل النزاعات بين العائلات وتقرير العقوبات والغرامات على المخالفين مثل: " أكل " المخالف أي جمع أكبر عدد من الناس والذهاب إلى منزله لتناول أطباق يحضرها بالمناسبة. وقد يتم الاستعانة " بالشرفاء أو المرابطين " أو فقيه المسجد الذين يتوفرون على سلطة ومكانة معنوية لحل العديد من النزاعات.

### 3- المؤسسة السياسية للفرقة : بولرباع

رغم مرور أزيد من قرن على انقراض هذه المؤسسة بسبب فرض فرنسا وبعدها المخزن لمؤسسات سياسية وإدارية أخرى، فإن كلمة **بولرباع** لازالت تتداول من حين لآخر على السنة البرانس، لكن قليلون هم من يعرفون مدلولها وأبعادها...

عند تطرقه لهذه المؤسسة قام **ترينكا TRENGA** بحصر سبب وجودها ووظائفها في الخطرين الداخلي والخارجي فقط . فإثناء السلم والهدوء لا أثر لهذه المؤسسة في حياة الفرقة أو القبيلة ، لكنها تظهر كلما كانت هناك مخالفات أو جرائم أو خطر خارجي يهدد القبيلة حيث يمكن أن يتشكل بولرباع من الفرقة ، الربع أي القبيلة ، أو **كنفدرالية البرانس** ككل. في حالة الحرب يتم استدعاء الأعيان إلى مكان معلوم، حيث يعمل أعيان كل فرقة على تعيين شيوخ يمثلونهم ويقوم **مجلس الشيوخ** باختيار **مقدم**.

يقوم **الشيوخ** كل في ما يخص فرقته بتنفيذ قرارات **المقدم** المتعلقة بالعقوبات ، والفرائض وشراء الأسلحة. إن اجتماعات بولرباع عامة وعلنية حيث يمكن أن يشارك في المناقشة كل الحاضرين من سكان القبيلة خاصة الذين يتميزون بالرأي السديد، لكن عندما تكون الأوضاع خطيرة تصبح الاجتماعات سرية يحضرها المقدم والشيوخ فقط، وتتخذ القرارات وتحفظ في سرية تامة إلى حين موعد التنفيذ .(59).

إن الوصف الذي قدمه **ترينكا** لمؤسسة **بولرباع** تعتريه العديد من التناقضات والنقائص. فهو يتناقض مع نفسه عندما يقول إن الشيوخ ينفذون القرارات التي يتخذها المقدم (ص 424) وفي مكان آخر يعرف بولرباع بكونه مجلس الشيوخ المعين من طرف الجماعة، الذي وتحت مراقبة المقدم المنتخب من طرفهم أي الشيوخ منمم ، يقوم بالسهر على الأمن والتنسيق وتنفيذ القرارات المتخذة باتفاق مع الرئيس أي المقدم (ص : 425)

في الفقرة الأولى، ليس للشيوخ أي سلطة في اتخاذ القرار فما عليهم إلا تنفيذ قرارات المقدم الذي يتوفر على سلطة شخصية تمكنه من الاستفراد باختصاص القرار على حساب الشيوخ ممثلي الفرق. وفي الفقرة الثانية يقتصر دور المقدم على المشاركة في القرارات التي يتخذها مجلس الشيوخ ومراقبة وتتبع تنفيذها.

إن مضمون الفقرة الثانية هو الأقرب إلى الصواب في نظرنا حيث يقتصر دور المقدم على المشاركة في اتخاذ القرار والتنسيق وتتبع عملية تنفيذ القرارات المتخذة من طرف **بولرباع** الذي هو عضو فيه كبقية الأعضاء الآخرين بغض النظر عن كونه رئيسا أو مقدا.

هذا من جهة ومن جهة ثانية يعتبر التوازن ما بين الفرق الخمس داخل القبيلة أو ما بين القبائل الأربع داخل كنفدرالية البرانس ، ضروريا وحيويا يجب الحفاظ عليه ضدا على أي استفراد بالقرار من طرف رئيس أو مقدم ينتمي إلى فرقة أو قبيلة بعينها. وكل نزوع للاستفراد بالقرار من طرف المقدم، يفسر على أنه يهدف إلى تغليب السلطة الشخصية على حساب الأعضاء الآخرين والفرق القبلية التي يمثلونها. لذا يكون الحذر شديدا اتجاه مغامرة من قبيل بروز هذه السلطة التي في النهاية قد تعصف بالتوازن وروح التضامن بين الفرق وبالتالي انهيار التنظيم القبلي أمام أي خطر خارجي.

خلال تحليله للبنى السياسية للقبائل الأمازيغية تطرق أوغوست برنار AUGUSTE BERNARD إلى مصير الشيخ أو المقدم الذي يغامر بتهميش مجلس " **اجماعه** " قائلا " **الشيخ** محكوم بإرادة " **اجماعه** " التي إن حاول تجاوز حدود سلطته ، تقوم بتغريمه أو قتل ماشيته أو تدمير بيته أو قتله. (60).

أما فيما يخص النقائص التي تعترى تطرق **ترينكا لبولرباع** فتتمثل في حصر وظائف هذه المؤسسة خلال زمن الحرب والخطر فقط بينما أثناء السلم والأمن لا وجود لها وكان كل فرد من أفراد القبيلة يعيش منفردا مستقلا في كل شيء عن الآخرين لا يحتاج إليهم إلا إذا أحس بالخطر.

إذا سلمنا بأن **الفرقة** عبارة عن وحدة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، فإن العيش المشترك والتضامن يتطلب بالضرورة آليات للسهر على ضمان شروط العيش بمفهومها الواسع. هنا يأتي دور بولرباع كمؤسسة تسهر على استمرارية مختلف المرافق الجماعية المشتركة بين الدواوير المكونة للفرقة: مسجد، مقبرة ، مصادر الماء ، المراعي، الغابة، الأمن، الجنان ... وعلى حل النزاعات والخلافات بين الأفراد والعائلات فيما بينهم أو مع الفرق المجاورة...

وكمثال تحتفظ الرواية الشفوية والذاكرة المحلية بواقعة تدخل بولرباع في حادثة قتل وقعت قبيل الحماية حيث تم الحكم على شاب قاتل بأداء عشرين مدا من القمح (حوالي 220 كلغ) وبقرة لأسرة القتيل، و "الخروج طليب" أي المنفى من فرقة أولاد جرو إلى قبيلة الطايفة المجاورة لمدة سنة، وهذا الحكم يتضمن عدم أخذ الثأر من طرف أسرة القتيل تطبيقا للعرف وبذلك يتم الحفاظ على جميع الطاقات البشرية للإنتاج والدفاع عن القبيلة.

لقد وقف **روبير مونطاني** خلال دراسته لعدد من القبائل الأمازيغية بالجنوب والمعربة بالشمال على نفس البنى الاجتماعية والسياسية للفرقة أو تاقبيلت أو الخمس. فمجلس تاقبيلت أي إنفلاس أو ايت الأربعين أو بولرباع يتشكل من أعيان الفرقة، حيث يمثل كل دوار بواحد فقط ، يتم اختياره بالتناوب من

لقد وقف **روبير مونتاني** خلال دراسته لعدد من القبائل الأمازيغية بالجنوب والمعربة بالشمال على نفس البنيات الاجتماعية والسياسية للفرقة أو تاقبيلت أو الخمس. فمجلس تاقبيلت أي إنفلاس أو ايت الأربعين أو بولرباع يتشكل من أعيان الفرقة، حيث يمثل كل دوار بواحد فقط، يتم اختياره بالتناوب من بين العائلات العريقة. ويقول في هذا الصدد إن أجماعة تاقبيلت المكونة من كل أرباب العائلات العريقة هي التنظيم السياسي الأكثر حيوية ونشاطا وهو ما تؤكدته فعالية مؤسساته المحلية. كل السلط الإدارية والتشريعية والتنفيذية تتركز وتجتمع فيه. إنها أي " أجماعة" هي التي تسهر على حماية المصالح الجماعية للفرقة والدفاع عن الحدود. (61)

وماذا عن القبيلة أي الربع أو الخمس؟

إذا كانت الفرقة تتوفر على أهم مؤسسة سياسية بالتنظيم القبلي وعلى أغلبية الاختصاصات في تدبير شؤون الفرقة، فإن روبر مونتاني يؤكد على أن القبيلة بالأطلس الكبير وإن كانت تتوفر على إسم وبعض التقاليد والاعادات المشتركة فإنها بدون مؤسسات سياسية واضحة لكن دورها عسكري بالدرجة الأولى في حماية الفرقة من تهديدات المخزن. (62)

قد يكون هذا صحيحا بالنسبة لبعض القبائل هنا أو هناك لكن الإختلاف في الظروف والمعطيات يفرض الوقوف على الواقع القبلي في بنيته الداخلية وفي علاقاته الخارجية.

#### 4- القبيلة: المؤسسة والأدوار

بالنظر إلى ما ذكر سابقا حول مؤسسة بولرباع على مستوى الفرقة FRACTION ووظائفها والتي تتكون من شيوخ ومقدم - كان مجلس بولرباع لفرقة **بني أفنج** متكونا من إثنا عشر شخصا يمثلون أعيان الفرقة حسب الرواية الشفوية - وبالنظر إلى الموقع الجغرافي للقبائل الأربع المكونة لكنفدرالية البرانس: الطائفة، بني فقوص، بني بويغلا وأوربة فإن لكل منها مؤسسة وأدوار.

يطلق إسم **بولرباع** على الفرد والمؤسسة السياسية أي المجلس على السواء، ويقوم بأدوار ووظائف سواء في مرحلة السلم عبر التنظيم واتخاذ القرار والسهر على التنفيذ الجيد له أو في مرحلة النزاعات والحروب عبر تعبئة جميع الموارد والطاقات البشرية للدفاع أو الهجوم على السواء.

في مرحلة السلم يتدخل بولرباع لحل المشكل على مستوى القبيلة TRIBU في القضايا التي تهم الفرق الخمس المكونة للقبيلة أو التي تهم القبيلة بالقبائل المجاورة مثل:

- تنظيم طرق الاستفادة من العديد من المجالات ومصادر العيش المتواجدة على الحدود بين الفرق أو بين القبائل: أراضي البور، الغابات، مصادر المياه، الوديان، مناجم الملح... فمثلا هناك العديد من الغابات التي تعتبر حدودا بين قبيلتي الطائفة وبني فقوص - غابة أزدم - وأخرى بين قبيلتي أوربة وبني بويغلا...

- التدخل لحل الخلافات والنزاعات التي تقع بين الفرق المنتمية إلى قبيلتين أو أكثر وذلك حفاظا على التضامن بين القبائل الأربع داخل القبيلة الأصل أي كنفدرالية البرانس.

- الدعم السياسي والمعنوي والمادي لإحدى القبائل الأربع في خلافها مع قبيلة مجاورة لا تنتمي إلى البرانس.

في مرحلة الحرب ضد القبائل المجاورة أو في مواجهة الحملات العسكرية للمخزن أو الثورة عليه كما حدث مع ثورتي **بوعزة الهبري والجيلالي الزرهوني** الملقب ب**بوحمارة** سيعرف الواقع القبلي

61) ROBERT MONTAGNE : les berbères et le makhzen. Edition Afrique Orient. Casablanca. 1989 P : 173.

62) IDEM. P : 180

للبرانس ظاهرتين لكن بشكل مؤقت. تتمثل الأولى في بروز هرمية واضحة داخل البنيات الاجتماعية والسياسية - **أجماعة وبولرباع** - عبر فرز القبائل لشخصيات وزعامات قوية قادرة على تحقيق الإجماع وقيادة الحرب ضد العدو الخارجي. هذه الزعامات تحمل لقب مقدم أو قائد. أما الثانية فتتمثل في ظاهرة اللف أو اللفوفية أي التحالف بين مختلف المجموعات الاجتماعية، فرق أو قبائل في مواجهة مجموعات أخرى من نفس المستوى.

هذه الظاهرة أي اللف قد تأخذ أبعاداً أوسع عندما يكون الخطر الخارجي أكبر وأشد. فالقبائل الأربع المكونة للبرانس تفعل اللف ويتحول المقدمون إلى زعماء حرب حقيقيين بينما تنتقل وظائف **بولرباع** أي مجلس كل فرقة من ممارسة تدبير الشؤون العادية للفرقة إلى مستوى أعلى أي تعبئة الموارد المادية والبشرية للمشاركة في المجهود الحربي للقبيلة ككل، وبالتالي بدل الجهد الكافي لنسيان أو حل أو تجميد الخلافات الداخلية للوصول إلى أعلى درجة من التضامن والالتحام وتحقيق الانتصار على العدو.

إن تمسك القبيلة بهذه البنيات والآليات السياسية التي يعتبرها بعض الباحثين "جمهورية" يجعلها في الطرف النقيض مع المخزن. فكيف كانت علاقة هذا الأخير مع قبيلة البرانس إذا ؟

## **7- علاقة البرانس بالمخزن : من مقاومة سياسة الإخضاع إلى الثورة**

### **1- صراع الأطروحات**

عند التطرق إلى طبيعة العلاقة بين الدولة المغربية والمجتمع وخاصة القبيلة، قبل الاستعمار، من طرف مختلف المساهمات الفكرية، سواء الأجنبية أو المغربية، المعاصرة للحدث أو التي جاءت بعده، يواجه الباحث بترسانة من المفاهيم والمصطلحات والأحكام قد تختلف أو تتفق فيما بينها حسب المنطلقات الإيديولوجية والمنهجية . وإذا كان الاتفاق يشمل في جزء كبير منه القاموس فإن توظيفه يخلص إلى اختلافات جوهرية في الأحكام ونتائج التحاليل.

هكذا نجد لائحة الثنائيات المتعارضة : بربر ≠ عرب، جبال ≠ سهول، استقلال ≠ خضوع، بلاد السبية ≠ بلاد المخزن، عرف ≠ شرع، ديمقراطية ≠ استبداد، سلطة دينية ≠ سلطة سياسية، مساواة ≠ تراتب، أجماعة ≠ سلطة معينة من طرف المخزن...

ونجد كذلك مجموعة من الأحكام مثل : المجتمع المغربي ركام من القبائل، القبيلة كمنطلق لتحقيق الطموحات السياسية الشخصية، القبيلة ضد تشكل الدولة، الفوضى أساس العلاقات الاجتماعية السياسية، المخزن نسق مستمر من العنف...

هذا الطرح نجده مشتركا بين العديد من الكتابات التي عاشت بداية التغلغل الأوربي في المغرب، اقتصاديا، سياسيا ثم عسكريا، ومنها السوسيوولوجيا الاستعمارية والكتابات المونوغرافية والأثنولوجيا والانقسامية التحليلية. فبالنسبة لمؤسس السوسيوولوجيا الاستعمارية، **ميشو بلير**، يقر بأنه " عموما يقسم المغرب إلى قسمين: بلاد المخزن أي المنطقة الخاضعة للحكومة وبلاد السبية التي تتمتع بالاستقلال حيث يتم الاعتراف بالسلطة الدينية للسلطان وبدون أن يكون لها أية سلطة إدارية" (63).

إلا أن هذا التقسيم في نظره مع ذلك غير كاف لضبط الحدود بين البلدين/ المنطقتين. فهناك

---

**63) M. BELLAIRE** : Quelques tribus de la montagne de HABT. Archives Marocaines. Volume : 17 , 1911. P : 13

منطقة وسيطة بينهما، لا هي خاضعة ولا هي مستقلة كليا عن السلطة المركزية كما هو حال قبائل جباله. (64)

إذا كانت بلاد المخزن تعرف حسب **ميشو بلير** وجود سلطات محلية سياسية وإدارية ودينية ومالية، فإن بلاد السبية ينعدم فيها أي تمثيل مادي للمخزن اللهم إلا جانبه الروحي أي الاعتراف بالسلطان كامير للمؤمنين وزعيم للجهد فقط (65).

بلاد السبية مرتبطة في الكتابات الاستعمارية بالجبال والأمازيغ وعدم أداء الضرائب والتكاليف بحيث نجد ان اغلب القبائل الأمازيغية مستقلة وتتمتع بنظام جمهوري فيدرالي يتميز بوجود عائلات وفرق في قاعدة الهرم تحت حكم أقلية (66).

أمام هذا الوضع المعقد كيف تتمظهر سياسة المخزن في هذا المجال؟

فحسب **أوغست بيرنار** يعمل المخزن على سحق ونهب الضعفاء ويبتعد عن الذين يستطيعون مقاومته. أما اتجاه الأقوياء فيفضل الاحتياط منهم مع عدم خوض المواجهة ضدهم. فالهضاب والسهول التي توجد على مرمى حجر من السلطة المركزية تجد نفسها مضطرة لتلبية طلبات المخزن ماديا وعسكريا لأجل مواجهة المناطق الجبلية الوعرة (67).

كيف تم التعامل مع هذه الأطروحات من طرف الكتابات السوسولوجية والتاريخية المعاصرة ؟.

إذا كانت منطقتنا جباله والريف قد أثارتا انتباه **ميشو بلير** كنموذجين تنطبق عليهما معايير بلاد السبية، فإن كلا من **جرمان عياش** و**عبد العزيز التمساني خلوق** قد حاولا اعتمادا على وثائق رسمية تفنيد هذا الطرح. فهما معا يقران بوجود مؤسسة " اجماعة " الخاصة بالفرق والمداشر والتي تعين مقدما أو شيخا على رأسها، لممارسة مهام وأشغال خاصة بالمجموعة الاجتماعية، وتمثيلها لدى المخزن كما يقران كذلك بهامش كبير من الاستقلال تتمتع به تلك الوحدات الاجتماعية (68)، خاصة وأن إدارتها لا تكون مباشرة من طرف السلطة المركزية.

---

63) M. BELLAIRE : Quelques tribus de la montagne de HABT. Archives Marocaines .  
Volume : 17 , 1911. P : 13

64) IDEM. P : 14

- G. Camps : Berbères en marge de l'histoire. Editions des Hespérides 1980. P : 326-330
- E. DOUTTE : LE Sultanat Marocain. Revue politique et parlementaire. Sept 1909. P : 7

65) M. BELLAIRE : Quelques... op.cit. P : 30

66) E. AUBIN : Le Maroc d'aujourd'hui, 8<sup>me</sup> édition. Librairie Armand Colin, Paris, 1913.P :53-54

67) A. BERNARD : Le Maroc... op.cit. P : 239

68) G . AYACHE : Société rifaine et pouvoir centrale Marocain (1850-1920), Revue Historique, N° 516, 1975,  
PUF, P : 34

- عبد العزيز التمساني خلوق: تشخيص المجتمع الجبلي بين الواقع والتنظير،  
مجلة دار النياحة، عدد 15-16، سنة 1987، ص: 27.

إن منطقة جباله بشساعتها كانت تحت سلطة عامل تطوان الذي كان " ... يعين على رأس كل قبيلة خليفة لتمثيله، ولم تكن مهمته تقوم على التدخل في شؤون القبائل الداخلية وإنما كانت تقوم على ممارسة الاختصاصات التقليدية كجباية الضرائب وجمع الهدايا الموجهة للسلطان والسهر على الأمن وزجر المخالفات المعقدة التي تعجز المجالس المحلية عن تسويتها (69).

إن تمثيلية وتواجد المخزن بالريف حسب **جرمان عياش** يتجسدان من خلال الحضور المادي للسلطة المركزية بالمنطقة: قصبات، ثكنات عسكرية، عدا عن خضوع المنطقة للعامل قبل التقسيم الإداري الذي قام به السلطان الحسن الأول بتعيينه قائدا على كل قبيلة (70).

لقد تعرضت قبائل الريف خلال القرن 19 إلى حملات عسكرية انتقامية وتأديبية من طرف المخزن سنوات : 1871، 1864، 1893 و 1898، بسبب الصراع العسكري الذي قاده القبائل ضد إسبانيا. لكن هذا لم يمنع **جرمان عياش** من اعتبار دورة العنف هاته، مجرد سلوك استثنائي ضمن سياسة مخزنية تميزت بوظائف أخرى اتجاه نفس المنطقة. إنها وظيفة التحكيم التي غالبا ما تطلبها القبائل لحل نزاع في ما بينها. نزاع يجد نهايته بفضل تدخل العامل مسنودا من طرف الشرفاء (71).  
في مواجهة الطرحين الإثني والوطني نجد طرعا آخر يعتمد على العنصر السياسي في تحديد نوعية العلاقة بين الدولة والقبيلة، وضبط ميكانيزمات السبية كظاهرة لم تكن مرتبطة لا بمستوى وبنية معينة للقبيلة ولا بالطابع الإثني للمجموعات الاجتماعية المعنية بحالة السبية.

عند التطرق لكتابات كل من **محمد الحبابي، عبد الله العروي، بول باسكون وخالد عليوة** نجد تقاربا في تفسير وتحليل طبيعة السلطة وكذا ظاهرة السبية. يتفق الباحثون الأربعة مع الطرح الأول في ضرورة التمييز بين السلطة الدينية والسلطة السياسية وما ينتج عن الإعراف بإحدهما أو كلاهما (72).

يعني الخضوع للسلطة الدينية تأدية الضرائب الشرعية كالعشور والزكاة بينما الاعتراف بالسلطة السياسية يعني تحمل تبعات الخضوع لسلطة محلية: قائد أو عامل، هدفه هو الثراء بشتى الأشكال والطرق الشرعية وغير الشرعية عبر فرض التكاليف كالمؤونة، الفريضة، الكلفة، الدعائر، الغرامات، التوزيع والهدية... إنه الوضع الذي يسبب في ثورة القبائل لا على الحكومة ولكن ضد القواد الجشعين والمستبدين (73).

أما في اللحظة التي نجد فيها قيادة الزعامات المحلية للثورات وخاصة بين 1850 و 1900 فإن ذلك راجع إلى انحسار واختناق الوضع السياسي - بسبب الضغط الأجنبي - والذي يعطي الانطباع لهذه الزعامات بعدم مشاركتها في السلطة، مهينا بذلك الظروف الموضوعية للسبية أي الانفلات من رابطة النسق المخزني (74) لكنه انفلات محدود بالزمان والمكان يعبر عن قوة المجتمع وثقله بالمقارنة مع الدولة " ثقل يوضح بشكل كبير مدى تجدر ما يسمى بالمطالب الديمقراطية، وهو راجع في نهاية المطاف

(69) **عبد العزيز التمساني خلوق**: نفس المرجع، ص: 34.

70) **G. AYACHE** : Société... op.cit, P : 357-358

71) **IBID**,P : 358

72) **A. LAROUÏ** : Les origines ... op.cit, P : 181

- **KH. ALIOUA** : Le rapport Etat – Société dans le Maroc anté – colonial.D.E.S. Ecole des Hautes Etudes en sciences sociales. Paris.1980. P : 102

- **P. PASCON, M. NAJI** : Les rapports du Makhzen avec ces marges au 19<sup>ème</sup> siècle. Le cas de la maison d'illigh. AAN.TOME : XXII, P : 109

73) **A.LAROUÏ** .IDEM.P :158 **ET P.PASCON** :IDEM.P :109

74)**A.LAROUÏ** :IDEM.P :181



إلى سمو المجتمع المدني بالمقارنة مع الدولة " (75).  
فبالرغم من عدم خضوع العديد من المناطق لإعادة إنتاج مؤسسات المخزن من قواد وأمناء وشيوخ وقضاة، فإن حسب عليوة ذلك لا يعتبر قطيعة نهائية مع الدولة ودائرة إشعاعها ولا حتى عدم اهتمام بمسار تطورها. إنها أي الدولة تعتبر القطب الذي تتحرك من حوله مختلف السلطات الفرعية أو المضادة (76).

ولا يمكن اعتبار عدم الخضوع - أي السبية - نزوعا طبيعيا لدى أمازيغ الجبال لما لهم من بنيات اجتماعية متميزة، بل العكس هو الصحيح، فالبنية الاجتماعية واحدة لدى مختلف القبائل - سبية أو مخزن- بالرغم من بعض الاختلافات. إلا أن ما يميز الحالتين هو العامل الجغرافي والتضاريس اللذان يلعبان دورا كبيرا في حدة المعارضة. يقول العروي " نعرف أن سكان سوس والشرق والمناطق الجبلية يتميزون بشجاعة كبيرة في معارضتهم للمخزن لكن هذا راجع إلى وضع جغرافي ملائم وليس لاختلاف معين في البنية الاجتماعية" (77).

إذا كانت الأطروحة الوطنية ممثلة في **جرمان عياش** وغيره تركز على الوحدة الوطنية رغم الاختلاف الحاصل، بل الصراع بين بنية القبيلة وبنية المخزن كرد فعل على الأطروحة الاستعمارية ممثلة في **ميشو بلير واغوست برنار** وغيرهما التي تركز على صراع الوجود بين القبيلة والمخزن وتخلص إلى حدوث القطيعة بينهما، فإن الأطروحة الأخيرة التي يمثلها **عبد الله العروي** وغيره، لا ترى أي اختلاف في البنيات الاجتماعية لمختلف القبائل المغربية، بل الاختلاف جغرافي وسياسي. فكلما كانت القبيلة تستوطن الجبال كانت معارضتها للمخزن قوية، والعكس صحيح. أما ظهور الزعامات والثوار فذلك راجع إلى الضغط الأجنبي ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، وعدم قدرة النسق المخزني على إدماجهم سياسيا في هياكله السياسية والإدارية...

## 2- مقاومة البرانس لسياسة المخزن

إذا درسنا المعطيات المتوفرة حول **كونفدرالية البرانس** منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى بداية الاستعمار الفرنسي نلاحظ ما يلي :

- استمرار الوجود الفعلي للبنيات الاجتماعية والسياسية ذات الطابع الجمهوري: اجماعة، بولرباع، رغم تعيين السلاطين لقواد على مختلف القبائل في بعض الفترات.
- عدم قدرة المخزن المركزي على تثبيت مؤسساته المحلية المتمثلة في هيكل إداري هرمي: باشا، قواد، خلفاء، شيوخ، بشكل يضمن استمراريتها وفعاليتها من جهة وكذا الخضوع الدائم للقبيلة من جهة ثانية.
- ثورة كونفدرالية البرانس لمرات عديدة وتفعيلها لكل مؤسساتها السياسية والحربية وأنظمتها والياتها: اجماعة، بولرباع، اللف أو التحالف .

ففي عهد السلطان عبد الرحمان كان التنظيم الإداري جوهيا بحيث اقتصر على تعيين القائد عبد الرحمان بن اشليح باشا على تازة المدينة والقبائل المحيطة وكذا الممتدة إلى حدود وحدة.

فإذا كان الباشا ينتمي إلى قبيلة شراكة التي كانت تعتبر من قبائل الكيش وهي قبائل يتم ترحيلها من موطنها الأصلي - المغرب الشرقي مثلا- إلى موقع استراتيجي لتقوم بالمهام العسكرية والإدارية مقابل حق الإنتفاع من أرض المستوطنة الجديدة، فإن خلفائه لم يكن ليتم تعيينهم إلا بناء على اختيار الكونفدرالية أو القبيلة لمرشح من بين أفرادها وذلك عن طريق **بولرباع** المؤسسة السياسية للقبيلة أو الفرقة.

75): KHALID ALIOUA : LE RAPPORT... OP.CIT.P : 96

76) KH. ALIOUA : Le rapport ... op.cit, P : 41

يرجع **محمد الحبابي** سبب الإنفلات السياسي أي السبية إلى مشكل اللامركزية الإدارية والديمقراطية المحلية.  
VOIR M.LAHBABI : le Gouvernement Marocain à l'aube du 20<sup>ème</sup> siècle. 2<sup>ème</sup> édition. Editeurs Maghrebins. Casablanca. 1975. P : 43 - 44.

77) A.LAROUÏ : Les origines ... op.cit, P : 163

لقد تم تعيين الشيخ **محمد بن احمد بن ابراهيم** من قبيلة أوربة خليفة على البرانس كلها قبل أن يتم تعيين خليفة على كل ربع على حدة: **بني فقوص، الطايفة، بني بويغلا ثم أوربة**. لم تستمر طويلا هذه الوضعية التي اتسمت على ما يبدو بالهدوء والسلم بين البرانس والمخزن. فبمجيء السلطان **الحسن الأول** سنة 1873 م إلى السلطة تغيرت الإستراتيجية اتجاه المجتمع ككل بهدف تحقيق السيطرة والإخضاع وتأسيس سلطة مركزية قوية مطلقة وبدعائم سياسية وإدارية قوية وفعالة على المستوى المحلي. تجسدت هذه الإستراتيجية في السياسات التالية :

- إعادة تنظيم الجهاز الحكومي المركزي بشكل يضمن فعالية قوية لمؤسستي الجيش ووزارة المالية تجسيدا لمقولة: الجند والمال أساس الملك.
- التخلي عن السياسة الجهوية ونهج سياسة القرب بهدف تحقيق الإشعاع للسلطة المركزية وضمان السيطرة المباشرة على المجتمع وخاصة القبائل التي كانت تحسب على بلاد السببية.

في هذا الإطار، خاض **الحسن الأول** المعروف "بالسلطان الذي عرشه فوق جواده" حروبا كثيرا ضد القبائل بمختلف مناطق المغرب. إلا أن هذه الحروب ورغم الإمكانيات المسخرة لم تكن كلها لصالح المخزن.

فإذا كان السلطان الحسن الأول قد نجح في اغلب المعارك فإنه وبالمقابل فشل على الأقل في ثلاث حملات عسكرية كبرى واستراتيجية ضد أمازيغ سوس الملتفين حول **الحسين أو هاشم** زعيم زاوية أبلغ، ضد أمازيغ الأطلس المتوسط بقيادة **موحي أو حمو الزباني** ثم ضد كونفدرالية غياثة في معركة بوكربة سنة 1875 م ومعارك أخرى امتدت إلى حدود سنة 1888 م.

بموازاة الاستعمال الدائم للقوة العسكرية ضد القبائل، نهج السلطان **الحسن الأول** سياسة تآطيرية وإدماجية تمثلت في إحداث تنظيم إداري محلي قوي يمكنه من إخضاع اصغر الوحدات الاجتماعية السياسية للقبيلة وضمان مشاركتها بالموارد المالية في تغذية بيت المال أي الخزينة وكذا بالمؤونة والرجال لدعم الحركات أي الحملات العسكرية ضد القبائل الأخرى.

لقد نجح السلطان في هذه السياسة بتحويل التنظيم الجهوي بالمغرب المعتمد سابقا إلى تنظيم إداري محلي عبر تقسيم القيادات الكبرى إلى قيادات صغرى، بحيث انتقل عددها من 30 إلى 330 قيادة، باستثناء منطقة حوز مراكش وعبدة التي عمل السلطان على توسيع قياداتها لفائدة زعماء قبليين لهم نفوذ وطموح ينتمون إلى كلاوة، كندافة، متوكة، عبدة... بهدف توظيفهم لإخضاع جبال الأطلسين الصغير والكبير وما ورائهما ومنطقة عبدة، وكذا الوقوف كسد مانع ضد أي مغامرة سياسية دينية تقودها زاوية إبلغ السوسية في اتجاه الشمال للسيطرة على السلطة.

بالنسبة لكونفدرالية **البرانس** وكما هو شأن مختلف الكونفدراليات القبلية المجاورة: **التسول غياثة ومكناسة** ... عمل السلطان **الحسن الأول** على تعويض الباشا **عبد الرحمان بن اشليح** بقواد محليين ينتمون إلى العائلات التي تتوفر على مكانة ونفوذ داخل قبائلها بحيث يستطيع أي السلطان إخضاع القبائل بأقل التكاليف المادية وكذا الموارد البشرية اللازمة لإحداث الإدارة المحلية.

في هذا الإطار تم تعيين **محمد التليواني** قائدا على قبيلتي **الطايفة وبني فقوص واحمد علي الفزاري** قائدا على **بني بويغلا** بينما بقيت قبيلة **أوربة** بدون قائد. لكن تنازعهما حول من يحكم هذه الأخيرة دفع بالسلطان إلى إرسالهما معتقلين إلى مراكش (78).

بعد هذا بسنة سيتم تعيين أربعة قواد جدد: القائد **استيتو** على قبيلة **أوربة** ، القائد **مسعود ادعامر** على قبيلة **الطايفة**، القائد **احمد بن اسعيد** على قبيلة **بني فقوص**، القائد **أحمد بن الطيب** على قبيلة **بني بويغلا**، هذا في الوقت الذي تم فيه تقسيم الحيانية إلى ثماني قيادات بدل أربع سنة 1869 م.

لقد تزامن هذا التعيين مع هزيمة السلطان في معركة بوكربة ضد كونفدرالية غياثة، وهو ما اثر بشكل سلبي على مكانة وسلطة القواد الأربع على قبائلهم، ولم يكن بإمكانهم مخزنتها وربطها بالسياسة العامة للمخزن.

فإذا كان الخضوع يعني بالنسبة للمخزن المركزي:

- المشاركة بالجهد والمال والرجال في الحملات العسكرية
- تأدية الضرائب وجميع التكاليف والغرامات
- الخضوع المطلق للسلطة المحلية المتمثلة في القواد،

فان القبائل الأربع المكونة للبرانس ستقف على النقيض من سياسة وأهداف المخزن من خلال:

- رفض طلب السلطان بالمشاركة في الحركات أي الحملات العسكرية ضد القبائل الأخرى.
- الامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التي جاءت المحلة بقيادة القائد عبد الله الشراذي لاستخلاصها.
- الثورة على القواد الذين حاولوا تنفيذ سياسة المخزن وتفجير القبائل.

بعد وفاة السلطان الحسن الأول سنة 1894، ومجيء السلطان عبد العزيز إلى السلطة اقتصر حضور المخزن على وجود ثلاثة عمال وهم بن بطو، بن لفيقه والطاهر المزمازي، عينوا تباعا على تازة والقبائل المجاورة التي عادت إلى وضعية ما قبل الحسن الأول أي مؤسسة اجماعة وبولرباع.

يتضح أن استراتيجية السلطان الحسن الأول لإخضاع العديد من القبائل ومن ضمنها البرانس قد فشلت. فالقبائل التي تتوفر على بنياتها الاجتماعية والسياسة ذات الطابع الجمهوري والتي تقع على طرفي نقيض مع البنيات السياسية والإدارية التراتبية للمخزن، لم تكن، أي القبائل مستعدة، لاستبدال الحضور الشكلي- الباشا والخلفاء- للمخزن، بحضور قوي وفعال ومادي لأجهزته وما يترتب عن ذلك من نتائج سلبية على بنياتها، أعراقها، نمط عيشتها، أموالها ورجالها.

الحضور المادي لأجهزة المخزن بالقبيلة يعني :

- نهاية ذلك الاستقلال الذاتي والحرية الذين تتمتع بها منذ قرون،
- نهاية أو على الأقل تهميش مجلس الشيوخ أي بولرباع وبالتالي فقدان السيادة والقرار،
- توظيف الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة لدى القبيلة في مشروع السيطرة والإخضاع بدل توظيفها في إشباع الحاجيات الحقيقية للقبيلة والدفاع عن حدودها.

الحضور المادي لأجهزة المخزن بالقبيلة يعني :

- نهاية ذلك الاستقلال الذاتي والحرية الذين تتمتع بها منذ قرون،
- نهاية أو على الأقل تهميش مجلس الشيوخ أي بولرباع وبالتالي فقدان السيادة والقرار،
- توظيف الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة لدى القبيلة في مشروع السيطرة والإخضاع بدل توظيفها في إشباع الحاجيات الحقيقية للقبيلة والدفاع عن حدودها،

عن سؤال: حول أي أطروحة تنطبق على البرانس يمكن تقديم الملاحظات التالية:

- بالنسبة للطرح الإثني الذي يربط السببية والمعارضة للمخزن بالقبائل الأمازيغية فقط، يجب التذكير بأن تاريخ المغرب لا يمكن فصله عن تاريخ ثورات القبائل أكانت عربية أو أمازيغية وبدرجات متفاوتة لصالح الأمازيغ. فقبائل أولاد دليم، الرحامنة والحياينة والسراغنة العربية وغيرهم كثيرا ما ثاروا على المخزن ما قبل الاستعمار.

- بالنسبة للطرح الوطني ممثلا بحرمان عياش وغيره، فهو من جهة يقلل من أهمية البنيات الاجتماعية والسياسية للقبائل الريفية أو الجبلية ودورها في تنمية الوعي بالذات والاستقلال عن المخزن المركزي، ومن جهة ثانية يثمن وظيفة التحكيم l'arbitrage التي

يقوم بها المخزن بين القبائل المتنازعة ، ويعتبره أي التحكيم أساس ارتباط المجتمع القبلي بالدولة الموحدة.

تجدد الإشارة إلى أن البنيات الاجتماعية والسياسية للقبائل بالمغرب وإن كانت من الناحية الشكلية تتشابه فإن جوهرها ومضمونها ووظائفها تختلف بشكل كبير جدا.

فالقبائل الخاضعة وإن كانت تتوفر على " اجماعة " المكونة من أعيان الدواوير أو المداشر فإنها ويحكم وجود سلطة إدارية محلية: عامل ، قواد ، خلفاء وشيوخ، تصبح عاجزة عن فرز مؤسسة سياسية وديمقراطية مستقلة مثل بولرباع أو انفلاس أو أيت الأربعين، ولا تقوم إلا بأدوار غالبيتها مرتبطة بتنفيذ قرارات السلطة المحلية.

أما وظيفة التحكيم فإنها لا تكون مطلوبة من الحكم L'ARBITRE إلا إذا كانت جميع مؤسسات أطراف النزاع والأطراف الأخرى المتواجدة كالزوايا والشرفاء عاجزة عن حل المشكل من جهة، ومن جهة أخرى لا يتوفر الحكم أي ممثل المخزن إلا على مكانة رمزية لا تمكنه من استغلال خدماته المطلوبة وتحويلها إلى مكانة مادية يوظفها لاحقا في الإخضاع السياسي للقبائل وربطها بالمخزن المركزي.

بالنسبة للتفسير السياسي لظاهرة السبية، يعتبر **عبد الله العروي** أن ثورات القبائل لم تكن موجّهة ضد المخزن المركزي بل ضد القواد والعمال المستبدين (79)، لكن هذه الثورات قد تستهدف في كثير من الأحيان العرش بتأطير وقيادة حركات مهدوية مثل حركة **بوعزة الهبري والجيلالي الزرهوني** وغيرهم.

منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى بداية الاستعمار قاومت كونفدرالية البرانس للحفاظ على وحدتها وقوتها وحافظت على مختلف بنياتها الاجتماعية والسياسية وما يرتبط بذلك من أعراف وتقاليد. وظفت من أجل ذلك كل المؤسسات والآليات: اجماعة، بولرباع، اللفوفية، تحكيم ممثلي الزوايا والشرفاء، بدل ترك هذه الوظائف بين يدي العامل المقيم بتازة وخلفائه أو القواد المعينين من طرف السلطة المركزية حتى ولو كانوا من أعيان القبيلة.

فيغض النظر عن المعطى الإثني أي **الأصول الأمازيغية للبرانس**، والمعطى الجغرافي إي استقرارها في **الجبال** هناك معطى آخر نعتقد انه ذو أهمية كبيرة في صمود بنيات القبيلة أمام التأثير العربي وكذا مقاومة أي سياسة إخضاعية وإدماجية ينتهجها المخزن المركزي. يتمثل هذا المعطى في الإرث السياسي والمرجعية التاريخية.

فكما هو الشأن بالنسبة للقبائل المجاورة :

- **التسول** التي أسست دولة **بنو العافية**، بنت رباط تازة حوالي سنة 300 هجرية واتخذت مدينة كرسيف عاصمة لها بعد تشييدها.
- **صنهاجة** التي كان جزء منهم قد أسس الدولة **المرابطية** بالجنوب المغربي.
- **غياثة** التي تؤكد على أن مصدر التسمية " غياثة" هو " إغاثة الدين" وأنها " مزرعة للسلطين " حيث عملت على تجسيد هذا التصور السياسي من خلال بيعتها **لبوعزة الهبري والجيلالي الزرهوني (80)**.
- **مكناسة** التي أسست دولة **بني واسول وبني مدرار** متبينة المذهب الخارجي الصفري والتي اتخذت سجلماسة عاصمة لها بعد تشييدها سنة 140 هـ.

فإن **البرانس** ومن خلال ربعها أي قبيلة **أوربة** كانت وراء تأسيس **الدولة الإدريسية** بجبل زرهون قبل الانقلاب عليها من طرف إدريس الثاني ونزوحها إلى شمال تازة.

79) A. LAROUÏ : les origines... op.cit, P : 158

80) L.VOINOT : Taza et les Rhiata. imprimerie Typographique et Lithographique. L.FOUKE, Oran.1920.P :46

منذ ذلك العهد والبرانس تحتفل سنويا وبعد موسم الحصاد بذكرى بيعة إدريس الأول في موقع يطلق عليه اسم " البرية " بقلب قبيلة أوربة الحالية حيث ومع توالي القرون أصبح الاعتقاد سائدا لدى جميع القبائل بأن بيعة إدريس الأول تمت بالبرية وسط الجبال على مقربة من منطقة الكوزات وتايناست شمال تازة وليس بمنطقة زرهون.



شجرة البري تتوسط بناية حيث يقام بها موسم البرية سنويا

هناك طقوس وعادات تمارس بهذا الموسم يجب الانتباه إلى مدلولاتها وأبعادها:

**البرية:** إسم يطلق على نوع من أشجار الزيتون البري، أغصانه وجدعه صلب بالمقارنة الأنواع الأخرى لكن حباته لا تعصر ولا تنتج زيتا. يحتمي بها الإنسان والحيوان على السواء من حرارة الشمس، وتتحول في مناسبات عدة لعقد الاجتماعات والتداول في القضايا التي تهم الدوار أو الفرقة.

ليس صدفة أن يكون جبل زرهون وويلي مشهورين بأشجار الزيتون منذ العهد الروماني على أقل تقدير، وهي المنطقة التي لجأ إليها إدريس الأول فارا من حرارة طقس الجزيرة العربية وسياسة ومذابح بني أمية ليحتمي بمظلة قبيلة أوربة.

إذا كانت شجرة الزيتون هاته تتمتع باحترام كبير وقدسيتها خاصة فإن تواجدها قرب الأضرحة وبالمقابر يحول وظيفتها إلى أن تصبح موضوع ممارسات وثنية تساعد على طرد النحس والخلاص من الأمراض عبر قيام الأشخاص والنساء بالخصوص بعملية " القطع فيها " أي ربط التمام بأغصانها ورمي بعض الملابس بالقرب منها.

**-الآمن:** كل الزوار القادمين من جميع الاتجاهات ورغم الخلافات التي قد تكون حدثت فيما بينهم إلى موسم البرية بقبيلة أوربة البرانس، متأكدين من سيادة الأمن والسلام أثناء عبورهم للقبائل المجاورة وإقامتهم بالموسم.

إنها الوضعية التي عاشها إدريس الأول وخداميه أثناء انتقالهم إلى جبل زرهون واستقرارهم به في حماية إسحاق بن عبد الحميد أمير قبيلة أوربة لولا عدم الحذر والاستخفاف بمصاحبتهم لجرير الشماخ الذي اغتاله وفر نحو الشرق العربي.

**-الضيافة والاستقبال:** كل الزوار وهم بالآلاف الذين يحجون إلى الموسم يستفيدون من حسن الاستقبال والأكل المجاني طوال إقامتهم. قد يقدم بعضهم هدية: ذبيحة، نقود أو أي منتج آخر، لكن يبقى هذا بقرار ورغبة منه. هذا ما عاشه إدريس وخداماه بجبل زرهون حيث استضافته قبيلة أوربة، زوجته من كنزة، وفرت له الحماية والأمن وبايعته إماما لنشر الدعوة.

**-الدعوة:** لا يتوقف الحفظة من ترتيب القرآن والدعاء لفائدة الزوار الذين بإمكانهم تقديم هدية نقدية رمزية تعود لصندوق وخزينة البرية. إنه الحفاظ على الاستمرارية في الدعوة ونشر الإسلام موضوع بيعة أوربة لإمامها إدريس الأول.

عبر هذه الطقوس والممارسات ذات الدلالات الرمزية الكبيرة، تكرر قبيلة أوربة البرانس وقائع تاريخها السياسي الديني وارتباطها بالأصول: **كسيلة الأوربي** بالجزائر تعاقد مع **أبا المهاجر** على الصلح ونشر الدعوة قبل تدخل الجيش العربي بقيادة عقبة ابن نافع لفك التحالف بين عرب أبا المهاجر وأمازيغ **كسيلة**، كانت نتيجة مقتل كل من عقبة وبعده بسنوات **كسيلة** ونزوح جزء من قبيلة أوربة إلى جبل زرهون.

بعدها بعقود وبالغرب سيتحالف **إسحاق بن عبد الحميد الأوربي** مع إدريس الأول بعد استضافته وبيعه إماما ليعملا على نشر الدعوة والإسلام بالجنوب المغربي وغرب الجزائر. بعد مقتل إدريس بايعت أوربة إدريس الثاني الذي اعتمد على المرتزقة العرب - 500 جندي - لتصفية إسحاق ابن عبد الحميد أمير أوربة. كانت النتائج كذلك مشاركة بما حدث بالجزائر:

- مقتل إدريس الثاني مسموما حسب بعض الروايات التاريخية،
- تقسيم الدولة الإدريسية قبل انهيارها،
- نزوح جزء من قبيلة أوربة إلى شمال تازة

إن هذا المعطى أي الإرث السياسي والتجربة التاريخية في تأسيس الدول لا يمكن إغفاله كعنصر مهم في تفسير تبني قبائل البرانس، التسول، غياثة ومكناسة لحركات مهدوية ومطالبين بالعرش وثورات على الاستعمار.

هكذا وفي ظرف أربعة عقود فقط التفت هذه الكونفدراليات القبلية حول زعماء كبار بنوا استراتيجيتهم على الربط الجدلي بين الجهاد ضد العدو الخارجي - فرنسا وإسبانيا - وبين غزو السلطة مادام السلطان الذي يبيع على أساس تحقيق العدل بين الرعية وحماية الثغور أي الحدود بالجهاد قد عجز عن الوفاء بواجباته الوطنية.

لم يتحقق العدل رغم حلول سلطان مكان آخر ورغم استبدال موظفي المخزن بأخرين، بل العكس هو الذي حصل: حملات عسكرية متعددة ودائمة لإخضاع المجتمع القروي تستهدف السكان، والأموال وممتلكات القبائل سواء كانت خاضعة أو نائرة. إدارة محلية استبدادية تمارس نهب خيرات السكان: ضرائب، فرائض، غرامات، هدايا ...

لم يتحقق الجهاد مادام السلطان لم يستطع حماية الحدود الشرقية ولا دعم جهاد الأمير **عبد القادر الجزائري** ولا تحرير المناطق الريفية من الاستعمار الإسباني، بل في هذه الحالة الأخيرة عمل على إرسال الجيش المخزني لمعاينة القبائل بالريف التي تعلن الجهاد ضد إسبانيا. الإخلال بشروط البيعة أي العدل والجهاد يعني فقدان السلطان للشرعية السياسية الدينية وحق المجتمع في بيعة شخص آخر. إنها الحالة الثورية التي تجمع بين طموح المرشحين إلى الاستيلاء على السلطة وبين الاستعداد القوي لدى القبائل للثورة.

طوال أربعة عقود أي منذ بداية عهد الحسن الأول 1883 عاش شمال وشرق المغرب ثورة استثنائية أنتجت شخصيات وزعامات هدفها إسقاط السلطة بدءا من **بوعزة الهبري**، **سعيد**

**السفروشتي، الجيلالي الزرهوني، المولى عبد الكبير** أخ السلطان عبد الحفيظ هذا بالإضافة إلى **الغازي والشنكيطي والحجامي وعبد المالك ابن الأمير عبد القادر الجزائري ومحمد بن عبد الكريم الخطابي** اللذين قادوا المقاومة ضد الاستعمارين الإسباني والفرنسي. خلال كل هذه المحطات كانت **كونفدرالية البرانس** حاضرة بقوة ضمن تحالف قبلي كبير يمتد من الحدود الشرقية لفاس العاصمة إلى الشرق والريف .

### 3- ثورات البرانس على المخزن

عند دراسته لمرجعية وسياق القبائل المستقرة ما بين الحدود الشرقية لفاس العاصمة ووجدة والريف وجزء من الأطلس المطل على حوض وادي إيناون أي ممر تازة، وقف **عبد الرحمان المودن** على المعطيات السياسية الدينية التالية قائلا " فقد بدا لنا استمرار آثار الدعوة الإدريسية بالمنطقة في شتى تجلياتها: بدءا من عمق ارتباط القبائل بمنشأ الدولة الإدريسية (أوربة) إلى قيام حركات باسم المشروع الإدريسية مثل حركة **الهبري** أو حتى حركة **الجيلالي الزرهوني** (بوحمارة) عند منطلقها. (81)

### 3-1: مساهمة البرانس في ثورة بوعمزة الهبري

شكل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م بالإضافة إلى استمرار الاحتلال الإسباني لسبتة ومليلية منذ وقت بعيد، نقطة تحول كبرى في علاقة المخزن بمحيطه الدولي وكذا علاقته مع المجتمع المحلي. لقد تميزت علاقاته الدولية بالاختلال في موازين القوى لصالح الدول الأوربية حيث تجسد أي الاختلال بعد حرب إيسلي مباشرة سنة 1844م في تأكيد القوى الأوربية من الضعف البنيوي للجيش المغربي الذي انهزم أمام فرنسا خلال هذه الحرب. هذه الواقعة سيسجلها لاحقا المؤرخ **أحمد بن خالد الناصري** بالقول: "فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم، فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش...ولما شهدوا مع الخليفة **سيدي محمد بن عبد الرحمان** واقعة إيسلي جاءوا بها شنعاء غريبة في القبح..." (82)

إنها شهادة مؤرخ البلاط أي القصر التي تلخص حالة الجيش. فهو مستبد ضد القبائل وعاجز عن حماية الحدود من العدو الخارجي. ستكون هذه الهزيمة مقدمة لسلسلة لا متناهية من الهزائم العسكرية والسياسية أهمها:

- احتلال إسبانيا للجزر الجعفرية سنة 1848م وعجز المخزن عن استرجاعهما.
- تفكيك الأسطول البحري المغربي تحت الضغط الفرنسي بدعوى محاربة القرصنة، وهو الذي أغرق الأسطول الأمريكي لمرتين أثناء دعمه ليبيا مع بداية القرن التاسع عشر ما بين 1803م و 1815م.
- تخلي المخزن عن دعم الجهاد بالجزائر والتبرء من **عبد القادر** أمير الجهاد بالجزائر.
- هزيمة جيش المخزن في حرب تطوان سنة 1859 وتعهد المغرب بتأدية عشرين (20) مليون ريال مقابل خروج الجيش الإسباني من تطوان ثم استقرار المراقبين الإسبان بالجمازك المغربية لاستيفاء 10 مليون ريال التي عجز المخزن عن أدائها.
- التفريط في الأراضي الشرقية لفائدة فرنسا بالجزائر تبعا لاتفاقية لا مغنية سنة 1845 التي علق عليها **إبراهيم حركات** بالقول: " وحسب هذه المعاهدة، فقد جرد المغرب من أراضيه الممتدة غرب وادي تافنا (بند 3) وأدخل قسم من الجنوب الشرقي في تراب

---

- (81) **عبد الرحمان المودن: البوادي... مرجع سابق، ص: 400**  
- (82) **أنظر محمد المنوني: مظاهر بقطة المغرب الحديث. الجزء1، الطبعة1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 1985. ص: 17**

الجزائر وتركت الصحراء مجرد مرعى لسكان البلدين من غير تحديد (بند 4). (83)

- حق الدول المتنافسة على المغرب في الحصول على نفس الامتيازات التي تتمتع بها أية دولة أجنبية. هذا بالإضافة إلى صدور ظهير سلطاني يشرعن من خلاله حرية التجارة وحق الأجانب في تملك الأراضي والاستفادة من الإعفاء من بعض الضرائب.

أمام هذا الوضع المتسم باختراق الدول الأوروبية لسيادة المغرب على جميع الأصعدة: الحدود، الاقتصاد، البنية الاجتماعية والسياسية والثقافية، وبموازاة مقاومة القبائل وجهادها بالشرق والريف سيخرج العلماء - حراس الشرع - إلى الواجهة السياسية والدعوة إلى الجهاد. بالنسبة للعلماء المؤطرين بالنص الديني، تعتبر هذه الوضعية كارثة حقيقية بالنظر إلى أن قواعد الإسلام تعرف انقلاباً جوهرياً بالمغرب، يتجسد فيما يلي:

- يدعو الإسلام إلى الجهاد خارج حدود الدولة المسلمة والحال أن المخزن ينهج سياسة استسلامية بحيث تحولت الدولة من دولة جهاد إلى دولة حدود فقط.

- ينص الإسلام على الغنيمة الناتجة عن الفتح والحال أن الاقتصاد المغربي هو الذي أصبح غنيمة للأوروبيين.

- يحفظ الإسلام لمواطني الدول والشعوب المفتوحة بوضعية ونظام الذمة أي إمكانية احتفاظهم بديانتهم مقابل الأداء لفائدة بيت المال، والحال في المغرب أن الرعايا المغاربة المسلمين هم الذين أصبحوا ذميين الأجانب: إنها الذمة المعكوسة.

في سنة 1863م قام العالم **محمد العربي العلوي المدغري** شيخ الطريقة الدرقاوية بالجنوب الشرقي للمغرب، على الحدود المغربية الجزائرية بتوزيع منشور للتحريض على الجهاد قائلاً: "... والمسلمون لا مندوحة لهم من القتال: إما أن يقاتلوا الكفرة لنصرة دين الله، وإما أن يستولوا، فيحملوا المسلمون على قتال إخوانهم قهراً، ولا بد لنا من أحدهما، وقد اختارت لنا الشريعة المطهرة التي بها صلاح الدنيا والدين مقاتلتهم ومنازلتهم، وإغزاء طائفة منا في كل سنة إلى بلدهم: تدعوهم إلى الإسلام وترغبهم فيه وتكف آداهم..." (84)

في هذه الدعوة عاد شيخ الزاوية إلى الأصول أي النص الديني لتوضيح مفهوم الجهاد الذي هو جهاد غزو للبلدان غير المسلمة وليس جهاد حدود أي الاقتصار على الدفاع عن حدود الدولة المسلمة.

هذه الدعوة والتحريض على الجهاد أطلقها وتزعمها علماء آخرون مثل **المدغري** سنة 1863 و**الكردودي** مؤلف كتاب "كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على الأمة"، و**التسولي المدعو مديش** الذي نظر لكيفية تعبئة الموارد البشرية وتنظيم الجيش لإعلان الجهاد، كذلك **محمد غريط** الوزير و**محمد الشنكيطي** الشاعر الذين وظفا إبداعاتهما الشعرية في الدعوة إلى الجهاد. (85)

كخلاصة، هناك ثلاثة عوامل أساسية في ظهور وتبلور الحركات المهدوية الجهادية:

- الانتهاك المستمر والمتصاعد للسيادة المغربية في كل الميادين من طرف القوى الأوروبية.

- عجز المخزن عن مواجهة هذه الوضعية وإعماله بمبدأ أخف الضررين أي تحمل السيادة المنقوصة بدل فقدانها كلياً لفائدة أوروبا.

(83) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء 3، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص: 208

(48) محمد المنوني: مظاهر... مرجع سابق، ص: 350

(85) نفس المرجع: ص: 23-39



- نضج الظروف الموضوعية والذاتية لدى المجتمع، قبائل وعلماء لفرز زعماء الجهاد من خارج مؤسسات المخزن.

بمنطقة وجدة على الحدود الشرقية مع الجزائر التي تحتلها فرنسا، وعلى عهد السلطان **محمد بن عبد الرحمان**، ظهرت شخصية **بوعزة الهبري** كزعيم للجهاد، لكن ظروف ما دفعت بالحركة إلى التواري إلى أن ظهرت من جديد على عهد **الحسن الأول** الذي أصبح سلطانا منذ 1873. هناك محددان أساسيان كشرطين ذاتيين في شخصية **الهبري** :

- يتمثل الأول في استقرار عائلة **الهبري** العربية الأصل بشرق المغرب وغرب الجزائر. عائلة تنتمي إلى فئة المرابطين الذين يتوفرون على مكانة رمزية بين القبائل تؤهلهم لأداء وظيفة الصلح والتحكيم بين الناس.

- يتمثل الثاني في أن **الهبري** ليس فردا من عامة الناس، فهو بالإضافة إلى مكانة العائلة كان عالما وعلى اطلاع واسع بعلم النبات حتى أنه كان يزور جامع الأزهر وإلقاء الدروس في هذا المجال العلمي.

هذه العناصر كلها: جغرافية، سياسية، اجتماعية وذاتية كانت تؤهل **الهبري** إلى الزعامة. يضاف إلى ذلك الشرط الاجتماعي النفسي لدى المجتمع أو على الأقل المجموعات الاجتماعية التي تعيش حالة انحصار وعجز في أوقات معينة بسبب الكوارث الاجتماعية والسياسية. لقد ولد العدو الخارجي واستبداد المخزن حالة نفسية لدى قبائل حوض إيناون تنبئ باقتراب ظهور المهدي المنتظر الذي سيخلص البلاد والعباد من مختلف الشرور.

في هذا الإطار، يورد **عبد الرحمان المودن** نقلا عن المؤرخ **محمد بن مصطفى المشرفي** حكاية كان **سعيد بن أحمد السغروشني** يرويها لأتباعه " بأن والده أوصاه بأن القادم عليه من الشرق والطالب إليه السلهاام الذي تركه له، هو صاحب حاجتك، فاتبعه ولا بد لك من الملك على يده". (86)

إن اعتقاد القبائل بيوم الخلاص على يد المهدي المنتظر يعتبر البيئة المثلى لاستقبال وتطور كل حركة مهدوية تستهدف السلطة المركزية لنشر العدل والقيام بالجهاد.

لقد تشكلت هذه الحركة من ثلاث قوى أساسية:

- زعيم الحركة أي **بوعزة الهبري** القادم من الشرق.

- زعيم سياسي ديني محلي بحوض إيناون أي **سعيد السغروشني**.

- كتل قبلية كبرى تمتد من شرق فاس مرورا عبر تازة إلى الشرق وهي كما ذكرها ابن زيدان: غياثة، التسول، الحياينة، بني وراين، كزناية، أولاد بوريمة، أيت سغروشني، بني سادن **والبرانس**. (87)

يلاحظ أن هذا التحالف القبلي مكون من ثلاث إثنيات كبرى:

- أمازيغية **كبني وراين وأيت سغروشني وبني سادن** بالأطلس المتوسط و**كزناية وأولاد بوريمة** بالريف.

- عربية **كالحيانية**.

- معربة جزئيا أي **غياثة** بالأطلس المتوسط و**التسول والبرانس** بمقدمة جبال الريف.

---

(86) **عبد الرحمان المودن**: البوادي... مرجع سابق. ص: 405  
(87) **عبد الرحمان ابن زيدان**: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس. الجزء الثاني. الطبعة الثانية. المطبعة الوطنية. الرباط. 1990. ص: 153

تنتمي كل هذه القبائل إلى ذلك المجال السياسي الديني المؤطر بإرث الدعوة الإدريسية إن في منطلقها كما هو شأن **أوربة البرانس** أو في سيرورتها وتداعياتها بتأطير من عدد من الزوايا والعلماء المنتسبين إلى التيار السياسي الديني للأدارسة.

رغم كل الإمكانيات المادية لدى الكتل القبلية الكبرى ثم الرمزية لدى **الهبري والسغروشنى** وكذا وضوح المشروع السياسي أي السيطرة على السلطة وإعلان الجهاد، فإن الحركة المهدوية التي هدت العاصمة فاس وحاصرت مخزن تازة، ستفشل في النهاية ليلقى القبض على **الهبري** بناوحي وجدة، ويلتحق **السغروشنى** بجبال بني وراين أملا في استمرار الحركة. من جهته سيعمل المخزن الحسنى على متابعة سياسة إخضاع القبائل النائرة بتنظيم الحملات العسكرية المستمرة ضدها وتعيين سلطات محلية لضمان ولائها، واستنزاف مواردها لضرب قوتها الاقتصادية وتفقيرها. هذه السياسة وإن نجحت في قبائل معينة لفترات متقطعة، فإنها ستكون مقدمة لثورة قبلية جديدة مع بداية القرن العشرين تزعمها **الجيلالى الزرهونى** وشاركت فيها **البرانس** مرة أخرى ضمن سلسلة الثورات القادمة.

### 2-3 : مساهمة البرانس في ثورة الجيلالى الزرهونى (بوحامرة)

ب وفاة السلطان الحسن الأول الذي زواج بين اللعب على تناقضات المصالح الأوربية وبين استخدام القوة والقهر اتجاه مكونات المجتمع، بهدف حماية السلطة، دخل المغرب مرحلة اتسمت عدا عن تكثيف الضغط الأوربي، بتفكيك آليات الشرعية.

فبيعة **عبد العزيز** لم تتحقق حتى بالإجماع الفسري بحيث كان على **باحماد** الحاجب الملكى والرجل القوي الذي عمل على مصادرة السلطة، توظيف كل آليات القوة الموروثة عن السلطان الحسن الأول بهدف تعميم الإخضاع. تطلبت عملية مركزة السلطة بالقوة مواجهة التمردات القبلية وخاصة تلك التي تبنت تصورا آخر حول مسألة الاستخلاف، فكان عليه أن يدمر الرحامنة التي ثارت باسم المولى امحمد الذي كان آنذاك رهن الاعتقال كما كان عليه، وبهدف إتمام عملية مصادرة السلطة، إقصاء المعارضة الفعلية أو المحتملة داخل الجهاز السياسي خاصة عائلة الجامعي التي ترجع أصولها إلى قبيلة أولاد جامع.

ستستمر عملية الإقصاء ولكن هذه المرة سيقودها السلطان عبد العزيز ضد عائلة باحماد بعد وفاة هذا الأخير سنة 1900، وبهذا سيتم حرمان المخزن العزيزي من أهم مقومات ودعائم السلطة، فالقوة المادية والسياسية التي كان أولاد جامع والبواخر يوفرونها للمخزن ستفكك. تفكك ساهم فيه حتى علماء البلاط الذين أصبح دورهم هو إصدار فتاوى الإقصاء تحت الطلب، وبذلك فقدوا بريقهم ومكانتهم الروحية والعلمية.

سيتحول النزيف الذي مس الشرعية إلى حالة مرضية لأن السلطان لم يستطع خلق شبكة من العلائق والزبائن الجدد كبديل لما تم تدميره. لقد ساهم بسياسته الانفتاحية ومشاريع الإصلاح في إحداث الشرح الاجتماعي السياسي: الإصلاح الضريبي "الترتيب" أفقده ما تبقى له من شبكة العلاقات التقليدية (الأعيان، القواد، الشرفاء والمرابطون، البيروقراطية المركزية، ثم جهاز العلماء - حماة الشرع - الذين رأوا في الترتيب مسا بالشرع والضرائب الإسلامية). وبدوره لم يعمل الإصلاح السياسي إلا على إضعاف الجهاز المركزي المنقسم إلى جناحين. أما سياسة ارتكاب أخف الضررين، فأجهزت على فريضة الجهاد الذي تحول إلى طوبى لدى العلماء المعارضين، وأصبح مصدرا لتأجيج العلاقة بين المخزن المتخاذل، ومراكز السلطة على المستوى المحلي التي تلقفت الجهاد على الحدود.

في وضع كهذا، حيث يعني الانفتاح على أوروبا بحثا عن مصادر جديدة وغريبة عن بنية المجتمع للتحكم في هذا الأخير، يكون من السهل وقوع انفلاتات وانفجارات داخل البنية التقليدية التي لم تعد قادرة على الحفاظ على تماسك مكوناتها الاجتماعية السياسية والإيديولوجية، فكانت النتيجة: تنازل ظاهرة المطالبين بالعرش ومن بينهم الجيلالى الزرهونى.

### 3-2-1 : المقومات الذاتية للثورة: شخصية الزرهوني

الجيلالي الزرهوني - بوحمارة - هو إذا إنتاج لإنفجار مؤسسة البيعة وفقدان الشرعية. وكغيره من الشخصيات الطامحة إلى المزج بين الطموح الشخصي والقضية السياسية، أصبح مشروعه لدى الكتل القبلية التي تبنته تجسيدا لمقاومة استبداد المخزن وتكالب القوى الأوربية، بينما لم يكن يعني لدى المخزن إلا فتنة وفسادا. أما بالنسبة لفرنسا على الخصوص، فهو ورقة يجب توظيفها وفي نفس الوقت مراقبة تداعياتها.

إذا ما هي المقومات المادية و غير المادية التي اعتمد عليها الزرهوني في غزوه للسلطة؟ ماهي حدود حركته؟ هل استطاع تقديم بديل إصلاحي لأزمة السلطة؟ ثم ماهي استراتيجية هذه الأخيرة اتجاه حركته؟ أي موقع ودور لقبيلة البرانس في ثورته؟

تجمع الدراسات التاريخية على أن الجيلالي الزرهوني المنحدر من منطقة زرهون لم يكن شخصية ذات نفوذ كبير، لقد كان مرتبطا من خلال الوظائف التي كان يقوم بها بالجهاز البيروقراطي بمدينة فاس (88)، لكن دسائس البلاط ستقصيه ويصبح ضحية لاستبداد باحماد الذي عمل على عزل مولاي عمر بن الحسن عن الخلافة بفاس، واعتقال الزرهوني والمهدي المنبهي قبل إطلاق سراحهما فيما بعد (89).

سمح له موقعه السياسي في خدمة مولاي عمر بفاس باكتساب تجربة سياسية ومعرفة دقيقة بالأوضاع السياسية العامة للبلاد وخبيا البلاط.

وبما أن المجال الديني كان مرتبطا أشد الارتباط بالعمل وبالموقع السياسيين لدى النخبة السياسية والعلمية، فإن الزرهوني وكغيره من موظفي ورجال المخزن لم يكن له خيارا إلا البحث عن ركيزة دينية تعتبر امتدادا لنشاطه السياسي وحماية لهذا الأخير. لذا اتخذ لنفسه الطريقة الدرقاوية بانخراطه في إحدى زواياها بنواحي فاس، بهدف الاستفادة من إشعاعها السياسي الديني والاجتماعي، خاصة وأن زعماء هذه الطريقة لهم نفوذ قوي لا في الشمال فقط ولكن كذلك في الشرق والجزائر وهو ما يفسر قرار الزرهوني السفر إلى الجزائر بعد إطلاق سراحه للأخذ من تعاليمها على يد عبد القادر بن عدة، وتبنى مواقفها السياسية اتجاه المخزن وفرنسا (90).

مواقف اتسمت بالمواجهة لأن زعماء الزوايا بالشرق تبناو الجهاد الذي كثيرا ما أثر على العلاقة بينهم وبين المخزن. لم يتعلم الزرهوني كما يذهب إلى ذلك مؤرخو البلاط، النواميس والشعوذة والسحر بل تبني شعار الجهاد ما دام غزو السلطة يقتضي ذلك: "ودخل مدينة وجدة، وتردد بين قبائل أنجاد وقرر لمن وافقه مقاصده مظهرا التأفف من حكومة المغرب لأجل خضوعها للتمدن الأورباوي..." (91).

سيتم توظيف الدعوة إلى الجهاد، من طرف الزرهوني لا لمواجهة العدو الفرنسي بالدرجة الأولى، ولكن تصوره للجهاد يتطابق من حيث رفع الشعار - فقط - مع تصور محمد العربي الدرقاوي بالشرق حيث تتم

(88) عبد الرحمان ابن زيدان: إتخاف... ج:1. ص: 400

(89) أبا عبد الله السليمان: اللسان المغربي في تهافت الأجنبي حول المغرب، ط:1 . مطبعة الأمنية، الرباط. 1971. ص: 144

- محمد المختار السوسي: المعسول. ج:20، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، ص: 37

(90) عبد الرحمان ابن زيدان: إتخاف... ج 1. مرجع سابق ص: 400

(91) أبا عبد الله السليمان: اللسان... مرجع سابق ص: 144

مواجهة الأجنبي عبر إسقاط السلطة المركزية التي أظهرت تخاذلها في حماية الحدود (92)

فبعد مقامه بفاس يقول **محمد الحجوي** : "وقف على ما كان جاريا بالقصر السلطاني من اشتغال السلطان عبد العزيز بجلب الغواني من الشرق وتعمير أوقاته بالملاهي وسماع الأغاني وبيع وزرائه للوظائف جهارا مع اشتغال بعضهم ببعض بالوشايات" (93).

إن كلام الحجوي هذا يعيد إلى الأدهان شروط الإمامة غير المتوفرة في سلطان المغرب أي العقل، الدين، العلم، العدل والجهاد. انتفاء هذه الشروط يسمح للأمة بالبحث عن سلطان جديد تتوفر فيه مواصفات السلطان الشرعي. وبما أن الأمة غير قادرة في ظرف يتميز بالأزمة البنيوية، على اختيار إمام جديد، فعلى المرشح المؤهل للإمامة أن يقدم نفسه لها. ولو أنه لا ينتمي إلى السلالة الحاكمة، فإن الجيلالي الزرهوني لم يتردد في قرصنة الشرعية السياسية الدينية، وتقديم نفسه للقبائل التي حضرت موسم امحمد بن الحسن الجناتي شمال فاس على أنه المولى امحمد (94) الوريث الشرعي للعرش بعد وفاة أبيه الحسن الأول. فأخذ حسب ابن زيدان ينشر بينهم معايب الدولة ورؤسائها ويحجب لهم الخروج عليها ورفض طاعة المخزن (95).

### 3-2-2: الدعائم المادية للثورة: الكتل القبلي

نجاح الدعوة بين القبائل: البرانس، الحياينة، صنهاجة وغيانة، شجع الزرهوني على البحث عن قاعدة قبلية صلبة تسمح له بالانطلاق نحو الاستيلاء على السلطة، وتوظيف ميكانيزمات اللف التي يتم إحياؤها بمجرد ظهور زعيم موحد ضد عدو مشترك. لم تكن هذه القاعدة القبلية الصلبة إلا قبيلة غيانة المعروفة بجراتها واستخفافها بالدولة وزوال الهيبة من قلوبها على حد تعبير محمد الحجوي (96). فمن أين تستمد إذن هذه القبيلة مصادر قوتها؟ من الموقع الاستراتيجي، المجال الطبيعي، النشاط الاقتصادي، المؤسسات الاجتماعية والسياسية؟

تحتل غيانة، موقعا جغرافيا، يتميز، بوجود سلسلة من الجبال - الاطلس المتوسط- قد يصل علوها الى 2000متر، مع امتداد نحو سهول وادي ايناون بالشمال الذي تحده قبائل التسول، البرانس والحياينة. واذا كانت هذه القبيلة يتكلم جزء كبير من سكانها العربية فانها من الناحية الاثنية تعتبر أمازيغية الاصل ولا زالت تحتفظ ان على مستوى نمط العيش او التقاليد والعادات على هذا الارث.

تشكل هذه القبيلة من مداشر / تجمعات سكنية، تتميز باحتلال المواقع الدفاعية المحصنة المسماة "القلعة"، مطلة بذلك على سهول الوادي الغنية من حيث الانتاج الفلاحي، الذي يتم خزنه في أماكن آمنة بالجبال (97).

إن موقع غيانة الاستراتيجي هذا يسمح لها بمراقبة الممر الوحيد الذي يربط فاس بالشرق وخاصة وجدة، ويجعل المخزن المحلي بتازة تحت رحمة قوة القبيلة التي تطل على المدينة. كما انها تشكل مركز استقطاب لمختلف الكونفدراليات القبلية التي تتوفر معها على حدود مشتركة: الحياينة، بني سادن

92 ) J. L. MIEGE : Le Maroc et l'Europe. Tome 4. 1<sup>ère</sup> édition. Edition la porte. P : 141

93 ) محمد الحجوي: الوظائف التي قام بها الحجوي في وجدة مع ذكر حوادث الثائر بوحمارة. فيلم 932. ج: 123، الخزنة العامة. الرباط. ص: 8

94 ) محمد المختار السوسي: المعسول... مرجع سابق. ص: 37

95 ) عبد الرحمان ابن زيدان: إتخاف... ج: 1، ص: 401

96 ) محمد الحجوي: الوظائف... مرجع سابق. ص: 9

97 ) L. VOINOT : Taza... OP. CIT: 43

**ايت شغروش، التسول، البرانس، مكناسة، هواره، ويني وراين.** عامل الجوار هذا وان كان يسبب العداء والحرب، فانه يتحول إلى مصدر قوة، خاصة وان مختلف هذه القبائل، يجمعها عامل الحفاظ على نفس البنيات الاجتماعية السياسية، عدا عن توفرها على نفس المرجعية الروحية المتمثلة في تواجد تأثير لنفس الزوايا والمرابطين والشرفاء.

فإذا كان للشرفاء العلويين حضور اقتصادي محظ- عزائب متناثرة هنا وهناك - فان للوزانيين حضورا متعدد الجوانب: اقتصادي - كالعزائب والزيارات والهدايا - وسياسي، عبر الوساطة والتحكيم بين اطراف نفس القبيلة او بينها وبين القبائل الأخرى المجاورة ثم مع المخزن.

لقد ظل هذا الأخير عاجزا خلال محطات كثيرة- القرن 19 وبداية 20- عن تحقيق إشعاعه، وتثبيت نفوذه التام والمستمر، رغم توظيفه لزاوية وزان تارة ولوسائل القهر تارة أخرى. فمختلف هذه القبائل ظلت محافظة على بنياتها الاجتماعية ومؤسساتها السياسية رغم محاولات المخزن المتكررة، تعيين قواد مخزنيين، بل القاعدة العامة هي اقتصار المخزن على الحضور الرمزي: قواد قبليين، لا يستطيعون فرض سلطتهم على مؤسسات القبيلة وشرفاء يضمون الإشعاع الإيديولوجي مادام لا يتعارض مع البنيات الثقافية المحلية (98).

إن صمود هذه البنيات والمؤسسات رغم محاولات الاختراق والتدجين، يفسر إلى حد ما سبب اختيار الزرهوني لجعل هذه القبائل: **غياثة، التسول، البرانس** منطلقا وركيزة لتحقيق مشروع غزو السلطة. فالزرهوني وبحكم موقعه السياسي السابق ومشاركته ككاتب في الحملات العسكرية ضد قبائل تازة، كان على معرفة مسبقة بمكامن القوة لدى غياثة وجيرانها. بالإضافة إلى عناصر القوة هاته يضاف الإرث السياسي الغني لهذه القبائل.

لم يخرج تأسيس السلطة عن التقاليد المخزنية، بحيث ان **الجيلالي الزرهوني** لم يرقم الا باعادة انتاج النموذج الازلي والمنتكر في التجربة التاريخية المغربية.

فبعد الدعوة بموسم امحمد الجناتي، التحق باهم وحدة اجتماعية سياسية ضمن قبيلة غياثة اي - اهل الطاهر- التي تراقب الممر الاستراتيجي بين فاس وتازة " الطواهر". وكعادة السلاطين، دخل في مصاهرة مع زعيم هذه القبيلة ليضمن ولائها ودعوما لمشروعه. بعد السيطرة على تازة على حساب المخزن المحلي " ترأس بوحمارة صلاة الجمعة " بجامع الكبير " بتازة حيث تمت مراسيم البيعة بحضور كبار اعيان القبائل وشرفاء وزان وبعض العلماء...وقام قاضي المدينة عبد السلام الحسنني الجاي باقامة الصلاة باسمه.

الصلاة في المسجد الكبير، البيعة، الأشراف، العلماء، الأعيان، كلها عناصر تخدم السلطة الجديدة مع الاحترام الكامل للشرعية التقليدية. هذا التمسك من طرف **الزرهوني** بالتقليد، سيكرسه من خلال تأسيس مخزنه، ونهج سياسة دينية وأخرى قبلية فضلا عن السياسة الأوروبية، وخاصة مع فرنسا وإسبانيا. لقد حافظ على جميع الرموز الخاصة بالسلطان: دار المخزن، فسطاط، مظلة، حرس أسود، علم، قصر، طابع كبير يحمل اسم المولى امحمد الذي انتحل شخصيته، طابع صغير، حاجب، قائد المشور، خدام... كما عمل على تكوين مخزنه الذي كان جنينيا بتازة، وأصبح مع تنامي نفوذ السلطة الجديدة وتوسعها مخزنا بكل ما للكلمة من معنى يضم الوزراء وحتى المستشارين الأجانب.

ان عملية تأسيس السلطة لم تكن لتتم بنجاح لو لم يعمل بوحمارة على التحكم في مصادر القوة والتوظيف الكثيف لرموز الشرعية السياسية الدينية. ولكي ينجح في توحيد مختلف الكونفدراليات القبلية، كان عليه أن يرفع شعار المرحلة: الجهاد والعدل، وكلاهما سقطا من جدول أعمال المخزن. هذا الأخير الذي حرك آلية العنف لم يعمل إلا على تقوية مشروع السلطان الجديد. فسواء كان الفشل هو مآل

الحركات العسكرية - وهي القاعدة العامة - او كان النجاح - نسبي وعارض- فان شعبية **الزرهوني** كانت تزداد مادامت قواته تهزم الجيش المستبد الذي إن انتصر في المعركة عاث في الأرض فسادا (99). في مواجهة عنف المخزن اتجاه القبائل/ الركيزة الأساسية لبوحمارة، عمل هذا الأخير على تفعيل وظيفة التحكيم وتحقيق الصلح بين القبائل التي بينها عداوة، واشرف على ربط تحالفات فيما بينها محققا بذلك، التفاف عدد كبير من المناصرين حول قضيته. سياسته القبلية ستعزز، بتمكين كل قبيلة من سلطة محلية - حسب إرادتها- تتوفر على مصداقيته، وتعمل على ربط الرعية بالعاصمة. مقابل الأمن والعدل ، تصبح القبيلة ملزمة بحماية السلطة الجديدة بالمال والرجال، وهو ما استطاع بوحمارة الحصول عليه طوال مرحلة غزو السلطة بدون عناء يذكر لان استعداد القبائل كان في حجم المشروع.

كان استعداد كونفدرالية **البرانس** كبيرا للانخراط في الثورة على المخزن يقودها زعيم إدريسي ينتمي إلى جبل زرهون، وهي المنطقة التي تعتبر بالنسبة للبرانس ذات حمولات ودلالات تاريخية وسياسية ودينية كبرى. في هذه المنطقة استقبلت قبيلة **أوربة البرانس** إدريس الأول، حمته زوجته، بايعته وتم تأسيس نواة الدولة الإدريسية.

ومع بداية القرن العشرين ستبايع **الزرهوني** وكأنها بذلك تربط الحاضر بالماضي، الماضي الذي أجهض على يد **إدريس الثاني** عندما قام بالتصفية الجسدية لإسحاق بن عبد الحميد أمير أوربة.

وبما أن الثورة تقتضي تعبئة جميع الموارد المادية والبشرية لغزو السلطة، فإن كونفدرالية **البرانس** ستخترط في خلق مؤسسة إدارية عسكرية على رأسها قواد ينتمون إلى مختلف القبائل المكونة لها:

- القائد الكوراري على قبيلة أوربة.

- القائد الحاج حمو الفزاري على قبيلة بني بويغلا.

- القائد **اعمر دقشمار** والقائد **أحمد بقاش** الذي عوض القائد **عامر التليواني** سنة 1904 على قبيلة الطايفة.

- القائد **عبد الرحمان الترابي** والقائد **علي الجراوي** على قبيلة بني فصوص. (100).

ما ميز الأجهزة السياسية الإدارية ووظائفها هو المحافظة على التقليد: عمال وقواد مهمتهم تحقيق الأمن، تحصيل الضرائب والهدايا، والمؤونة والجزية وتعبئة القادرين على حمل السلاح ضمن جيش الزرهوني . جيش مشكل على النمط المخزني: جيش نظامي من محترفين- زبدة ما تقدم القبائل - ويتوزع على ثلاث مجموعات : المشاة، الفرسان والمدفعية. ولكي يضمن فعالية كبرى للتنظيم العسكري استنجد **الزرهوني** بخبرة **الطيب بوعمامة** ابن احد زعماء اولاد سيدي الشيخ بالشرق، و**عبد المالك بن محي الدين حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ثم الفرنسي كابريل دلبريل**. أما القسم الثاني من الجيش فيتكون من متطوعي القبائل.

بهذه البنية العسكرية الجديدة التي فرضتها ظروف المرحلة، ستعرف كونفدرالية **البرانس** تحولات في وظائف بنياتها السياسية والاجتماعية بحيث أصبح دور بولرباع و"اجماعة" في خدمة المجهود الحربي عبر تعبئة جميع الموارد المادية والمالية والبشرية وكذا التأطير العسكري وتوفير الدعم النفسي لكل المرشحين والقادرين على حمل السلاح للمساهمة في غزو السلطة.

• (99) محمد المختار السوسي: المعسول... مرجع سابق. ص: 42

### 3-2-3 : غزو السلطنة

منذ أول عملية عسكرية قادها الجليلي الزرهوني - بوحمارة - كانت **البرانس** حاضرة بقوة ضمن تحالف قبلي كبير ضم: غياثة، قبائل من شرق المغرب، بني وراين، الحياينة، التسول والبرانس، بحيث بلغ عدد المقاتلين 15.000 فارس حاصروا مدينة تازة أواخر سنة 1902 م. هذه القوة العسكرية ستدفع **بنشكرة** عامل تازة الذي أفلت من الحصار إلى التصريح أمام السلطان في مجلس حكومي بالقول " أقول لكم، وصراحة إنه لو تابع السلطان طريقه نحو مراكش، فإن بوحمارة سيدخل فاس دون مقاومة، ودون إطلاق رصاصة واحدة". (101)

لقد كانت هذه الشهادة صادقة ومنتبأة:

- صادقة لأن بنشكرة كعامل على تازة والقبائل المجاورة يعرف جيدا القوة العسكرية لهذه القبائل التي لا يمارس عليها إلا سلطة شكلية، ولا يستطيع تحويلها إلى فعلية بحكم تاريخها العسكري والسياسي المعارض لأية سياسة إخضاعية يطمح المخزن إلى ممارستها.

- منتبأة لأن الإختلال في موازين القوى بين جيش المخزن وبين هذه القبائل هو لصالح هذه الأخيرة منذ السلطان الحسن الأول الذي انهزم جيشه أمامها لمرات عديدة. ولم يستطع فرض استمرار خضوعها رغم تعيين قواد وخلفاء لم يماسوا بدورهم إلا سلطة شكلية على قبائلهم ولفترات متقطعة.

من الناحية العسكرية، عرفت ثورة الجليلي الزرهوني والقبائل ضد المخزن مرحلتين : تمتد المرحلة الأولى من سنة 1902 إلى سنة 1908، والثانية تبدأ منذ عودة الجليلي الزرهوني مطرودا من الريف إلى تازة حتى 1909، سنة القبض عليه بمنطقة جبالة.

خلال المرحلة الأولى، كانت أغلب المعارك لصالح الثورة بقيادة الزرهوني الذي كان مشروعه السياسي يتطابق مع طموح القبائل في تحقيق العدل ضد استبداد المخزن، والجهاد ضد الاحتلال الأجنبي وكل أشكال الاختراق الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع المغربي.

ففي شهر دجنبر 1902 حاول المخزن استرجاع مدينة تازة لكن القبائل ستهزم الجيش السلطاني بقيادة مولاي عبد الكبير. وكرد فعل استعان السلطان عبد العزيز بقبائل النائية أي الخاضعة للمخزن من حوز مراكش، عبدة، دكالة، حاحة، سوس والغرب، هذا بالإضافة إلى ما يتوفر عليه من جيش نظامي. تم تشكيل قوة عسكرية من 40.000 رجل توزعت قيادتها بين: محمد الأمراني، عيسى بن عمر العبدى، عبد السلام الأمراني، عباس المنبهي وبوعلي الدكالي وذلك بهدف استرجاع تازة.

في الجهة المقابلة، حافظ جيش **الزرهوني (بوحمارة)** على النواة الأولى المكونة من: غياثة، بني وراين، بعض قبائل شرق المغرب، التسول، الحياينة و**البرانس**، كما انضمت حديثا كل من قبيلتي أيت يوسي وبني سادن المطلة على فاس العاصمة.

لقد استطاعت القوات العسكرية لهذه القبائل بقيادة بوحمارة إلحاق هزيمة كبرى بجيش السلطان شرق مدينة فاس أواخر شهر دجنبر 1902، وهو ما دفع الناجم الأخصاصي أحد القادة العسكريين لفيلق سوس ضمن جيش السلطان إلى القول: " فلما أشرفنا على فاس، آنسنا نارا بعيدا في الأفق فإذا بها نيران محلة جاء بها محمد بن بوشنتى البغدادي، هيئت لتغيثنا، فإذا بها قد انهزمت أيضا بالسماع فقط، لما سمعت بانهزامنا... فلم تكذب الحرب تشتعل حتى كان كبار المحلات أول من هرب من المعصمة كمولاي عبد السلام الأمراني ومولاي عبد الكبير ابن الحسن ومولاي عبد السلام الوزاني... " (102)

(101) لويس أرنو: زمن المحلات السلطانية. الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب،

ما بين 1860 و 1912، ترجمة محمد ناجي بن عمر. مطبعة إفريقيا الشرق الدار البيضاء. 2002. ص: 133

(102) محمد المختار السوسي: المعسول... مرجع سابق. ص: 40

كان من نتائج هذه المعارك:

- خسائر كبيرة من أرواح جيش المخزن.

- سقوط معنويات جنود وقواد السلطان الذين فروا تاركين ساحة المعركة نحو فاس.

- إصابة سكان ومخزن فاس بالهلع مما جعلهم يلقون الأبواب الشرقية للمدينة حتى في وجه الجنود الفارين خوفا من اقتحام المدينة من طرف قوات بوحمارة.

- سيطرة قوات بوحمارة على معسكرات الجيش السلطاني واستيلائها على غنائم ذات أهمية كبيرة في المعارك المقبلة، والتي ذكرها الجندي سالم العبيدي وهو يحكي بمرارة عن فضاة الهزيمة وأثارها حيث قال "... وهكذا أسقطت كل الخيام والأسلحة والمدافع والعتاد والمؤن، والإماء (السود) والعبيد في يد بوحمارة بما في ذلك قافلة من البغال المحملة بأكياس من الدوروات غادرها حراسها هنا". (103)

ستدق هذه الهزيمة ناقوس الخطر وتدفع بالمخزن إلى إعادة النظر في قيادة الجيش ومكوناته، بحيث تم تعيين المنهبي كوزير قائد وحيد للجيش السلطاني الذي سيظم هذه المرة فرسان قبائل زايان، أيت يوسي، بني مكيلد وبني مطير وهي القبائل الأمازيغية الجبلية المعروفة بمعارضتها للمخزن.

أمام قوة هذا الجيش برجاله وسلاحه العصري انهزم التحالف القبلي الملتف حول الجيلالي الزرهوني في معركة على نهر سبو شهر يناير 1903 م وتم التراجع نحو تازة العاصمة.

جعلت هذه هزيمة الزرهوني يغير استراتيجيته العسكرية والسياسية خاصة وأن المراهنة على دخول فاس محفوفة بالمخاطر بسبب اختلال التوازن العسكري لصالح السلطان عبد العزيز الذي وسع من قاعدة جيشه وسلاحه بشكل نوعي عبر الاعتماد على:

- أهم القبائل الأمازيغية بالأطلس المتوسط كقوة بشرية تتمتع بخصال وكفاءات حربية عانى منها المخزن مرارا كلما حاول إخضاعها.

- الخبراء الفرنسيون الذين يدرّبون الجنود على استعمال مدفعية شنايدر 75 والرشاشات.

- شرفاء وزان لضمان انضمام قبائل جبالة لجيش المخزن الذي يقوده المنهبي.

- الحصول على السلاح الضروري والنوعي من إسبانيا وفرنسا وكذا الدعم السياسي الدولي لمشروعه...

بعد إعادة تنظيم جيشه وجهازه الحكومي، توجه جيش الزرهوني نحو الشرق والريف متخذا المجالات الجغرافية الوعرة عبر البرانس وكزناية بحيث يمكنه ذلك من:

- التوفر على قاعدة خلفية صلبة وأمنة ينطلق منها متى شاء لغزو فاس العاصمة.

- توسيع قاعدة التحالف القبلي، خصوصا وأن قبائل الشرق والريف لها إرث سياسي غني ومعروف بمعارضتها للمخزن ومقاومتها للاستعمارين الإسباني والفرنسي.

- ضمان التحاق الزعماء السياسيين الدينيين: زعماء زوايا وعلماء، بحركته وهو ما يوفر له شرعية مبنية على الدعوة إلى الجهاد.

في تعليق له على انتشار سلطة الزرهوني بفضل التحالف القبلي الموسع الذي يضم قبائل تازة ومن ضمنها البرانس وقبائل الشرق والريف يقول سالم العبيدي الجندي في جيش المخزن: " فتنامت مكانة بوحمارة بشكل واضح، حيث أن القبائل الموجودة بين تطوان وملوية وكل الأراضي الموجودة على مشارف وزان وفاس إلى حدود الجبل قد اعترفت ببوحمارة". (104)

باستقرار الزرهوني بوجدة والريف بقي التحالف القبلي بتازة وتاونات في مواجهة جيش المخزن الذي يستهدف استرجاع تازة وإخضاع القبائل.

(103) لويس أرنو: زمن... مرجع سابق، ص: 137.

(104) لويس أرنو: زمن... مرجع سابق، ص: 141.



في هذا الإطار، تم تجهيز قوة عسكرية كبرى من مختلف القبائل بسوس وحوز مراكش وعبدة وقبائل السهول الأطلسية ونواحي فاس ومكناس. قوة عسكرية ضمت 50 ألف رجل وقطع المدفعية 75 والرشاشات، تحت قيادة المنبهي وزير الحرب. كانت الخطة العسكرية تقتضي أولا إخضاع قبائل جباله وتاونات وعلى وادي ورغة وحشد رجالها للمشاركة في الحرب على جيرانهم: الحياينة، التسول، البرانس لإخضاعهم قبل التوجه لاسترجاع تازة عبر شمالها الغربي تلافيا للسقوط في فخ المواجهة مع قبيلة غياثة على مستوى وادي إيناون ووادي لحضر، وعدم تكرار حادثة هزيمة الحسن الأول في معركة بوكربة.

أثناء تنفيذ هذه الخطة بداية شهر ماي 1903 بمنطقة جباله ورغم حجم القوة العسكرية والسلاح العصري وتدخل الشرفاء الوزانيين فإن قوات المنبهي ستواجه قبل الاستسلام بمقاومة رجال عدد من القبائل أهمها: بني مزكلدة، بني زروال، مديونة بتاونات الذين تحصنوا بالجبال وقاوموا إلى أن انسحب جيش المنبهي.

وبمجرد ما اقتربت قوات المنبهي من قبيلتي صنهاجة والتسول، تحركت من جديد آلية اللف أي التحالف القبلي بحيث تحركت الحياينة والبرانس لدعم جيرانهم مما أثمر عن هزيمة جيش المنبهي وانسحابه. هزيمة لخصها سالم العبيدي بالقول: "وقد كانت المواجهة عنيفة تركنا فيها عدة خسائر، ورجعت هذه الصوكة مهزومة إلى المعسكر، بل إن الرصاص بات الليل كله يدوي في المعسكر الشيء الذي استحال معه البقاء في هذه المنطقة. (105)"

نفس القبائل وبمؤازرة هذه المرة من القبائل المجاورة: مغراوة، غياثة وبني ورياغل واجهت المنبهي بمكناسة على مقربة من تازة شهر يوليوز 1903. مواجهة علق عليها سالم العبيدي قائلا: "وقد كانت خسائرنا في هذه المواجهة فادحة، حيث كان الرصاص ينزل علينا من كل صوب واجتياح المعسكر، واقتلعت الخيام، وقتل وجرح الرجال والبهائم. وقد أحصينا في الصباح 70 قتيلًا وأكثر من 100 جريح من ضمنهم أمة سوداء للمنبهي قطع ساقها". (106)

بعد هذا، ستخف حدة المعارك و يقرر المنبهي دخول مدينة تازة رغم مقاومة رجال قبيلة غياثة الذين يسيطرون على المدينة. دخول نتج عنه نهب للممتلكات والأموال واغتصاب النساء، وإهانة الشيوخ وبيع الفتيات في سوق النخاسة وهروب يهود الملاح نحو مدينة دبدو ومليلية بالريف، إلى أن تدخل - بشكل متأخر - المنبهي لإيقاف فوضى الانتقام. (107)

بعد إخضاع مدينة تازة وتلقي بيعتها من جديد مكان بيعة الزرهوني الذي كان متواجدا خلال هذه الحرب بمنطقة سلوان نواحي الناظور، عاد المنبهي إلى فاس لكن القبائل ستحاصر المدينة من جديد. حصارا عجل بعودة جيش المخزن بقيادة المدني الكلاوي لفك الحصار عن المدينة وإيصال المؤونة والدعم. لكن قبائل، غياثة، التسول والبرانس طاردوه منذ وصوله إلى وادي أمليل على بعد 25 كلم من تازة، مطاردة نتج عنها: جرح المدني الكلاوي، خسائر بشرية بجيشه، حمولتين من النقود غنمتها القبائل.

رغم استرجاعه أي المخزن لتازة واتخاذ منطقة اوطا بوعيان على بعد 60 كلم تقريبا غرب تازة كقاعدة عسكرية خلفية، ورغم تواجد الزرهوني بالشرق، لم يستطع المخزن تأمين المدينة وممر حوض إيناون ولا حتى إخضاع القبائل التي كانت تراقب الممر وتعيق باستمرار أي مجهود حربي جديد تتم على ضوءه السيطرة الفعلية والدائمة على هذه المنطقة. فكل حركة عسكرية منظمة لربط فاس وتازة كانت تنتهي بخسائر كبيرة في الأرواح والأموال. لقد كان انتقال القواد العسكريين لقبائل الحوز والسهول الأطلسية من تازة نحو اوطا بوعيان غربا، مناسبة لقبائل التسول وغياثة والبرانس.

(105) نفس المرجع: ص: 145

(106) نفس المرجع: ص: 146

(107) نفس المرجع: ص: 147

لتحقيق انتصار عسكري جديد وإقناع المخزن بأن استرجاعه لتازة واستقراره بها غير آمن وبالتالي لا يمكن توظيفه واستغلاله سياسيا وعسكريا لتحقيق أهداف أخرى ضمن استراتيجية السيطرة والإخضاع. في هذا الإطار، يقول **سالم العبيدي** " وفي طريقهم هاجمهم الأعداء التقليديون : **البرانس، التسول وغيثة** الذين ظنوا بعد مرور المدني أن تنسيقا ما تم بين المحلّتين وعملوا على حراسة كل المنافذ الطرقية فتسببوا بذلك في عدة قتلى وجرحى وأسرى في صفوفنا حيث قطع في هذه المواجهة رأس قائد الشاوية: **برشيد**، وحمل وسط احتفالات التبوريدة إلى مناطق **التسول**". (108)

حصار محلة (فيلق) تازة بقيادة المدني الكلاوي، قطع خطوط الإمداد ومراقبة الممر بين تازة وفاس ثم تهديد مقر القيادة العامة بأوطا بوعبان، تلك هي الخطط التي تبنتها القبائل كاستراتيجية عسكرية لإفشال استراتيجيه المخزن المرتكزة على إحداث مركزين عسكريين متقدمين ومتواصلين فيما بينهما بهدف إخضاع القبائل المستقرة شمال وجنوب وادي إيناون، وادي لحضر ووادي الأربعاء شمال شرق تازة، وكذا تأمين خطوط الإمداد العسكري لجيش المخزن في مواجهة الزرهوني بالشرق والريف.

لمواجهة هذه الوضعية، كان على المخزن أن يعيد ترتيب أوراقه بعد إعفاء المنبهي من مهامه كوزير للحرب وذهابه إلى الحج حيث أعطيت الأوامر للمدني الكلاوي للتوجه إلى الشرق لمواجهة الزرهوني الموجود بقصبة مسون ثم وجدة. خلال هذه الحملة العسكرية ومنذ خروجها من تازة كانت القبائل تعمل بتاكثيك حرب العصابات لإنهاء قوات **الكلاوي** ومن ضمنها: **بني وراين، غيثة الشرقية، بني بوياحي، بني قولل، بني بوزكو، بني يزناسن وأنجاد بالشرق والريف**... بينما بقيت مدينة تازة تحت حصار قبائلها.

لم يكن بإمكان جيش المخزن الاسترجاع المؤقت لمنطقة المغرب الشرقي بعد عودة الزرهوني إلى تازة لدعم مقاومة قبائلها إلا بفضل الدعم الفرنسي والإسباني:

- دعم عسكري بالسلاح العصري، والمدربين
- دعم مالي بحيث حصل المخزن العزيمي وإلى حدود سنة 1904 على ما يقرب 84,5 مليون فرنك فرنسي.
- دعم لوجيستيكي بفتح حدود الجزائر أمام تنقل جيش السلطان من طنجة عبر البحر إلى وجدة، وتوفير أرض اللجوء لممثلي وجيش المخزن المهزومين.

فرض اختلال التوازن هذا على الزرهوني الرجوع إلى القواعد الخلفية التي انطلق منها أي تازة للتصهي المادي، المالي والبشري قبل العودة إلى شرق المغرب، واسترجاع وجدة التي دخلها المدني الكلاوي.

شارك في هذا التصهي **بوعمامة** أحد زعماء قبائل أولاد سيدي الشيخ بالشرق، الذي طارده القوات الفرنسية من منطقة توات وفكيك والمجاهد **عبد المالك بن محي الدين حفيد الأمير عبد القادر الجزائري** الذي كان ضابطا سابقا بالجيش العثماني قبل أن يشند الخناق على حركته بالشرق وينخذ لاحقا قبائل شمال تازة من بينها **البرانس** كقاعدة خلفية لتأطير قوات القبائل (109).

منذ شهر غشت 1904 م وإلى حدود شهر يوليوز 1905 م، اندلعت الحرب الدائرة حول مدينة وجدة بين المخزن من جهة والتحالف الكبير الذي يجمع الزرهوني، بوعمامة وعبد المالك الذين يقودون جيش قبائل تازة ونواحي وجدة من جهة ثانية.

حرب تأكدت من خلالها فرنسا أن انتصار الزرهوني وحلفاؤه غير مشكوك فيه وهو ما يعني أن خطر الجهاد بزعمامة عبد المالك وبوعمامة بات يهدد فرنسا التي وكما أكد ذلك **سالم العبيدي** في شهادته قائلا "... وفي الأخير واجهنا محاولة أكثر شراسة حيث انتظمت أفواج الهجوم في ثلاثة حملات وصلت إلى حدود خيامنا، ولولا تدخل مدفعية البعثة العسكرية الفرنسية لانهزم أتباعنا ... (ويضيف)... وقد كان لتدخل الحكومة

(108) نفس المرجع: ص: 150

(109) أنظر : - لويس أرنو: نفس المرجع: ص: 156- 157

- A. LAROUÏ : Les origines...op.cit. P : 356

والأموال الفرنسية بدون شك أثر واضح في إخضاع المخزن لعبد المالك وبوعمامة" (110).

أمام اختلال موازين القوى لصالح المخزن وفرنسا وتفكك التحالف المحيط بالزرهوني، اختار هذا الأخير التراجع نحو قبائل الريف بمنطقة سلوان بالناظور. بهذه المنطقة استجمع قواه وخاض حروبا كثيرة انتصرت فيها جيوشه على كل الحملات العسكرية التي نظمها المخزن عن طريق البحر عبر طنجة طيلة سنة 1907 ومنتصف سنة 1908. (111)

كانت متطلبات هذه الحرب كبيرة وتتجاوز إمكانيات قبائل الريف التي رفضت المساهمة بالمال والرجال في جيش الزرهوني الذي فقد إلى حد كبير مواقعه الخلفية بنواحي وجدة وتازة. وضع جعله يغامر بتفويت امتياز استغلال معادن الريف بسلوان لفائدة الشركات الإسبانية وبالتالي إحداث القطيعة مع قبائل الريف التي ثارت عليه وطرده من أراضيها. (112)

عاد الزرهوني إلى تازة أواخر سنة 1908 م آملا في استرجاع القاعدة الاجتماعية السياسية التي تبنت مشروعه ودافعت عنه، لكن قبائل التسول وغيانة والبرانس والحياينة لم تستجب هذه المرة لدعوته، وقرر خوض المغامرة الأخيرة بزحف ما تبقى من جيشه نحو فاس التي لم يدخلها إلا وهو معتقلا بعد إلقاء القبض عليه سنة 1909 م بزاوية مولاي عمران شمال شرق فاس.

إن الأسباب - العدل والجهاد - التي جعلت قبائل تازة ومن ضمنها البرانس تتخلى عن السلطان عبد العزيز وتبايع الزرهوني هي نفسها التي ستدفعها إلى فك الارتباط بهذا الأخير ونهاية مشروعه السياسي.

بالرغم من المساهمة الفعلية للقبائل بالمال والرجال في المجهود الحربي منذ إعلانه سلطانا بتازة سنة 1902 م، فإن الزرهوني لم يكن عادلا حيث وبمجرد دخوله وجدة استغنى عن مخزنه أي أعضاء الحكومة المنتمين إلى قبائل تازة وعوضهم بأخرين من وجدة. هذا بالإضافة إلى الاستنزاف المادي والمالي الذي عانت منه بالمقارنة مع الإعفاءات التي استفادت منها الفئات الاجتماعية بوجدة ونواحيها.

أما الجهاد فقد توارى إلى الخلف بمجرد دخول الزرهوني في علاقات تجارية واقتصادية مع فرنسا وإسبانيا حيث عمل على تمتيعهما بامتيازات التجارة الحرة واستغلال المعادن مقابل الدعم السياسي والعسكري والمالي. إنها المفارقة بين الثورة التي تقتضي تعبئة الموارد الذاتية والحصول على الشرعية الداخلية وبين استقرار السلطة التي تطلبت سواء لدى عبد العزيز أو الزرهوني أو عبد الحفيظ لاحقا، الاعتماد على الشرعية والموارد الخارجية.

إنها العودة إلى نقطة الانطلاق أي الحالة الثورية التي بقيت البرانس وغيرها من مكونات المجتمع تعيشها متطلعة لاستقبال زعيم آخر للجهاد.

## VI - مقاومة البرانس للاستعمار الفرنسي

### 1 - السياق السياسي العام للمقاومة

في الوقت الذي بدأت فيه البرانس وغيرها من القبائل بتازة والريف والشرق تتخلى عن الزرهوني، كان الجنوب المغربي - حوز مراكش - يعرف حركة اجتماعية سياسية نتجت عنها بيعة عبد الحفيظ - أخ عبد العزيز - سلطانا شهر غشت 1907. بيعة انظم إليها العلماء وقبائل الأطلس المتوسط والسهول الأطلسية، بينما بقي كلا من الشمال الغربي والريف وشرق فاس إلى الحدود مع الجزائر غير معنيين ببيعة سلطان لم تتضح بعد ملامح مشروعه السياسي. وإذا كان عبد الحفيظ، السلطان الجديد قد دخل العاصمة فاس معتمدا على الكتل القبلية لحوز مراكش، عبدة، الشاوية، دكالة وزايان وعلى موافقة علماء فاس المترددين على بيعته من أجل

(110) لويس أرنو: زمن... مرجع سابق، ص: 157

(111) نفس المرجع: ص: 197

(112) نفس المرجع: ص: 198

- A. LAROUÏ : Les originines... OP.CIT. p : 366

**الجهاد والعدل والشورى**، فان استراتيجية عبد الحفيظ للحفاظ على السلطة، ستكون مقدمة لتفكك التحالفات التي ارتكز عليها مشروعه لغزو السلطة، وللثورة عليه وعلى فرنسا ومواجهة مخططاتها الاستعمارية.

لقد شكل الجنوب المغربي بقواده الكبار أمثال : **الكلاوي، المتوكي، الكنداني، العيادي، عيسى بن عمر العدي، الجلولي**، المرتكز الاجتماعي السياسي لسلطة عبد الحفيظ منذ بيعته بمراكش إلى حين الاستقرار بفاس العاصمة، مروراً بمحطة غزو السلطة التي لعب فيها **موحى أو حمو الزياني** زعيم قبيلة زايان الأطلسية دوراً كبيراً.

عند استقراره بفاس شكل **عبد الحفيظ** حكومته من قواد الحوز: **محمد بن كبور** وزيراً أعظم أي الوزير الأول، **المدني الكلاوي** وزيراً للحرب أي الدفاع، **عيسى بن عمر العدي** وزيراً للخارجية، **عبد المالك المتوكي** وزيراً للعدل ثم **الطيب التازي** في المالية وأحمد القريري كحاجب.

فالقائد هو أولاً وقبل كل شيء ، شخصية مرتبطة في شروط تشكلها بالنسيج الاجتماعي المحلي، وهو ما يتناقض مع وظيفة الوزير الذي يفترض فيه البعد الوطني. وضع كهذا جعل **ايدموند دوتي** يلاحظ المفارقة التالية على مستوى الثقافة والسلوك السياسيين. فالوزير يدافع عن السلطان، لأنه يستمد قوته من ولائه له أما الوزير القائد فمصدر قوته هو الكتلة القبلية التي يمثلها، وهذا يفتح المجال للمواجهة مع السلطان (114) . هذا الأخير وبسبب عقم الجهاز لم يتورع عن توظيف القواد واستغلال تناقضاتهم ، مع عدم الاستغناء عنهم في المرحلة الأولى خوفاً من انقلابهم عليه وإعلان سلطان آخر بالجنوب.

إن سيطرة قواد الحوز على الجهاز الحكومي ستتواصل خصوصاً مع احتكار عائلته **الكلاوي** لمختلف المناصب : **المدني الكلاوي** وزيراً أعظم، **محمد بن المدني** وزيراً للحرب، **حماد الكلاوي** باشاً على فاس.

كانت هذه السيطرة على حساب قوتين أساسيتين في الهرم السياسي والعسكري على عهد الحسن الأول وعبد العزيز.

تتكون القوة الأولى من قبائل الكيش مثل أولاد جامع، شراكة، الشراردة ثم عبيد البخاري، قبائل ومع مرور السنين تطورت وظائفها بحيث لم تعد تقتصر على المجال العسكري بل تعدته إلى المجالين السياسي والإداري: وزراء، باشوات وقواد. ولم تعد قروية خالصة رغم استقرار هذه القبائل حول المدن الرئيسية وبالممرات الإستراتيجية بل امتد وجودها إلى الحواضر منافسة بذلك القوة الثانية.

تتكون القوة الثانية من الفئات الاجتماعية الوسطى وكذا أرستقراطية المدن: تجار، أرباب الحرف، ملاك وأبناؤهم المثقفون : فقهاء وعلماء، قضاة، مدرسون، عدول... سيوظف السلطان عبد الحفيظ وزراءه من قواد الحوز في مواجهة القبائل الثائرة والمطالبين بالعرش أمثال عبد العزيز الذي لم يكن قد استسلم بعد، وكذا أفراد العائلة الملكية الآخرين المطالبين بالعرش .

بعد استقراره بفاس عرفت السياسة الأوربية للسلطان عبد الحفيظ تحولا نوعيا وسريعا بالمقارنة مع سابقه عبد العزيز الذي لعب بورقة توازن المصالح بين القوى الأوربية وتناقضاتها بينما لم يكن أمام السلطان عبد الحفيظ إلا خيارين محفوفين بالمخاطر على سلطته :

- **الخيار الأول:** التجاوب مع مطالب القبائل والعلماء وبعض النخب السياسية وإعلان الجهاد في وقت كانت فيه فرنسا قد استفردت من موقع قوة بالمغرب في إطار توزيع مناطق النفوذ والمصالح مع الدول الأوربية الأخرى.

- **114) DOUTTE (EDMOND) :** le sultanat Marocain. Revue politique et parlementaire. Mois 9. 1909.p : 17

- **الخيار الثاني:** الارتقاء في أحضان فرنسا والاستنجد بقواتها العسكرية لحمايته من رعيته - شعبه - حماية عسكرية حصل عليها السلطان بينما في السابق كانت فئات اجتماعية ينتمي إليها الأعيان وزعماء الزوايا والثوار هي التي تطلب الحماية السياسية من الدول الأوروبية ضد استبداد المخزن وممثليه المحليين.

في ظل هذا الوضعية المعقدة، قرر السلطان يوم 12.9.1908 التعامل ايجابيا مع المطالب الأوربية الخاصة بالاعتراف بفحوى مقررات الجزيرة الخضراء: تنظيم الشرطة بالموانئ المغربية بمساعدة فرنسا واسبانيا، إنشاء بنك للدولة تحت المراقبة الأوربية، فرض الرسوم على الوثائق الإدارية والاستيراد والتصدير. وهذا ما جعل **عبد الله العروي** يعتبر **عبد الحفيظ** نسخة **لعبد العزيز** من حيث مبررات إقالة هذا الأخير، لأنه وضع حدا نهائيا لطموحات العلماء (115) والحركة الدستورية، في إصلاح البلاد اعتمادا على المرجعية الإسلامية، و في مقاومة التغلغل الأجنبي المتزايد.

لم يكن هذا الاعتراف إلا بداية لسياسة أوربية من أهم تجلياتها :

- التخلي عن جهاد الشاوية والشرق خاصة وأن وحدة والدار البيضاء محتلتين منذ منتصف 1907.

- دفع تعويضات لفرنسا على احتلال الشاوية التي قدرت ب 70 مليون فرنك فرنسي، يقدمها المخزن و2.5 مليون فرنك تفرض كغرامة على سكان الشاوية لإنهاء أشغال ميناء الدار البيضاء.

- إسناد مهمة تكوين وتدريب فيالق من المشاة والخيالة إلى **إميل مانجان** رئيس البعثة العسكرية الفرنسية بفاس، في انتظار تسليم قيادة الجيش المغربي للضباط الفرنسيين لاحقا .

- إسناد الإشراف على الأشغال العمومية والمعادن إلى لجنة مشتركة.  
- تحمل عبء القروض التي خلفها السلطان المخلوع، ومختلف التعويضات المالية للدول الأوربية، التي قدرت ب 206 مليون فرنك وهو ما جعل السلطان عاجز عن نهب الرعية إلى طلب قروض جديدة من فرنسا وألمانيا. "ولكي يضمن هذا القرض - من فرنسا- تخلى عن مجموع مداخل الجمارك واحتكار التبغ ومداخل الأملاك المخزنية الواقعة بجوار المراسي..." (116)

- التوقيع سنة 1910 على اتفاق يعترف فيه لفرنسا بحق الحفاظ على الأمن بين منطقتي **زورفانة وكير** بالشرق حسب مقتضيات اتفاق 1902.

- الاستنجد بالقوات الفرنسية، لفك الحصار الذي فرضته القبائل على فاس واسترجاع مكناس التي أعلن بها مولاي الزين سلطانا من طرف قبائل بني مطير.

لقد ساهمت السياسة الأوربية لعبد الحفيظ، في حرمان السلطان من كل عناصر حركته التي أوصلته إلى السلطة. فبقدر ما كان يراهن على السياسة الأوربية بقدر ما كان يعيد إنتاج التجربة العزيرية: مواجهة الثورة القروية والحركات الجهادية والابتعاد عن الحركة الدستورية المطالبة بوضع دستور وكذا العلماء الذين ما فتئوا يطالبون بالجهاد والإصلاح . (117)

115) ABDELLAH LAROUÏ : LES ORIGINES ... OP. CIT. P : 401

116) JEAN BRIGNON : Histoire ... OP.CIT. P : 327.

117) إنها الحالة التي اشار اليها **العروي** مؤكدا على ان الفقهاء كانوا في الماضي صلة وصل بين السلطان والرعية ، في لحظة ما يقترب الفقيه ليصبح من الدعاة الأوفياء للسلطان وفي لحظة اخرى يتعد ليتكلم باسم الرعية مخاطرا بحياته وممتلكاته . انظر ، **عبد الله العروي** : مفهوم الدولة. المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . الطبعة 2 . 1983. ص : 133

في هذا الإطار وبالرغم من نجاح السلطان عبد الحفيظ في وضع حد لثورة الجيلالي الزرهوني الذي تخلت عنه قبائل الريف والشرق وتازة، فإنه أصبح عاجزا عن مواجهة حالة التفكك التي يعيشها التحالف الذي اعتمد عليه اثناء بيعته ومرحلة غزو السلطة.

لقد اصبح في مواجهة مباشرة مع ثورة النخبة والمجتمع التي اتخذت الأشكال التالية:

- بيعة قبائل الحياينة ، التسول ، مكناسة والبرانس **للمولى عبد الكبير** بتازة سنة 1910.
- بيعة قبيلة بني مطير **لمولاي الزين** بمكناس سنة 1911 .
- بيعة قبيلة الرحامنة **للمولى امحمد**.
- بيعة بعض قبائل حوز مراكش **لاحمد الهبية** حفيد الشيخ ماء العينين.
- تخلي **احمد الريسوني (118)** بالشمال عن التحالف مع السلطان عبد الحفيظ لصالح التحالف مع اسبانيا في انتظار ثورة محمد بن عبد الكريم التي قضت عليه.
- انسحاب **موحى او حمو الزياتي** من التحالف الحفيظي واعلانه لاحقا الجهاد ضد الغزو الفرنسي.
- تخلي **الطيب البوعزاوي** زعيم الزاوية البوعزاوية بالشاوية عن عبد الحفيظ وحصوله على الحماية الالمانية.
- لجوء **محمد بن عبد الكبير الكتاني** زعيم الزاوية الكتانية بفاس الى قبيلة بني مطير نواحي مكناس لاعلان الجهاد قبل اعتقاله ومصادرة املكه واعدامه من طرف عبد الحفيظ. **(119)**
- فك ارتباط زاوية وزان بالسلطان عبد الحفيظ وحصولها على الحماية الفرنسية .

شكل منتصف سنة 1911 بأحداثه المتسارعة المحطة الأخيرة لسلطة عبد الحفيظ :

- **يوم 4 ماي 1911**، يتقدم السلطان **عبد الحفيظ** بطلب الدعم العسكري الفرنسي المباشر لمواجهة الكتل القبلية الكبرى: الشراردة، بني مطير، زرهانة، شراكة، أولاد جامع، بني وراين، غياثة، أيت يوسي التي تحاصر فاس.
- **يوم 21 ماي 1911**، تدخل القوات الفرنسية فاس بعد مواجهات عسكرية مع القبائل، ثم تليها حملات عسكرية منظمة لمثلث فاس، مكناس وصفرو أواخر ماي 1911 وبداية شهر يونيو 1911، نتج عنها الإخضاع المؤقت للقبائل واستسلام **مولاي الزين**.
- **30 مارس 1912**، توقيع السلطان **عبد الحفيظ** على عقد الحماية.
- **شهر أبريل 1912**، ثورة الجنود المغاربة على كل ما يرمز إلى الجيش والتواجد الفرنسيين بفاس.
- **شهر يونيو 1912**، يتخلى **عبد الحفيظ** عن العرش لفائدة أخيه **مولاي يوسف** ويحصل على تعويض مالي كبير من فرنسا مع ضمان سلامة حياته من قبل السلطات الفرنسية. **(120)**

---

- **(118)** لمزيد من التفاصيل حول مسار **احمد الريسوني** : من قاطع طريق إلى نائر إلى زعيم قبائل جباله إلى قائد مستبد متحالف مع **السلطان عبد الحفيظ**. انظر، **المختار الهراس**: القائد وأزمة العلاقات القبلية . نموذج **الريسوني** . المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع. عدد 8 سنة 1986.

- **(119)** لمزيد من التفاصيل حول المأساة التي حصلت للعالم الكتاني وزاويته ومريديها انظر ، **محمد الباقر الكتاني** : ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد. مطبعة الفجر.

- **(120)** pour plus de détails, voir **A.LAROUÏ** : les origines... op.cit. P : de 407 à 410

- **لويس أرنو**: زمن... مرجع سابق. ص: 215 إلى 219.

لقد فقد السلطان عبد الحفيظ كل الركائز المادية والرمزية الضرورية لسلطته. فقد ركيزة السلالة الحاكمة من خلال خروج العديد من الامراء عن الاجماع واعلان بيعتهم بالعديد من المناطق. فقد الركيزة الاجتماعية والمادية المتمثلة في قبائل الحوز والسهول الاطلسية وزايان ثم اصبح بدون شرعية دينية وسياسية التي توفرها الزوايا وكذا العلماء .

## 2- المقاومة المسلحة للغزو الفرنسي : من زعيم إلى آخر

لم يكن نجاح الجيش الفرنسي في دخول فاس وتهدئة بعض القبائل المحيطة بالعاصمة إلا مقدمة لثورات متتالية عمت العالم القروي بقيادة زعامات جهادية محلية. كان عليه أن يحمي العاصمة من هجومات قبائل جباله بقيادة **محمد الحجامي** الذي وحسب **سالم العيدي** " دخل زاوية مولاي إدريس، التي أخذ منها غطاء الضريح ليظهر للقبائل أنه دخل فاس"، (121) قبل أن يتراجع ليقود فيما بعد مقاومة كوندارية **البرانس** وجيرانها. كما كان على الجيش الفرنسي أن يبسط سيطرته على الجنوب والأطلس المتوسط اللذين أعلننا الجهاد تباعا تحت قيادة **هبة ماء العينين وموحا أو حمو الزباني**.

إن هذه المحاور الثلاث - شمال فاس، الجنوب والأطلس - للإستراتيجية العسكرية الفرنسية وإن كانت ذات أهمية كبرى في إخضاع المغرب ضمن حدوده الوطنية، فإن ممر تازة يأخذ أهميته الإستراتيجية في إطار أوسع أي البعد الإقليمي للسيطرة الفرنسية على شمال إفريقيا.

في هذا الإطار، صرح **ليوطي** " تازة قبل كل شيء " (122) وأضاف **أوغست برنار** " فطالما أن هذه الطريق ليست بأيدينا، فإن وحدة امبراطوريتنا تبقى غير ثابتة " (123).

إذن ماهي العوامل التي دفعت **بليوطي و أوغست برنار** إلى إعطاء هذه الأهمية لمنطقة تازة ؟

هناك عوامل متعددة في هذا الشأن من ضمنها:

- **العامل الجغرافي:** إن ممر تازة أساسي في الاتصال بين المغرب الشرقي وشمال إفريقيا وبين غرب المغرب. فموقع تازة بين سلسلتين جبليتين كبيرتين : الأطلس المتوسط وجبال الريف، يجعل منه الرهان الأول في أية استراتيجية عسكرية أو سياسية تستهدف ربط الغرب بالشرق عبر السيطرة الفعلية على المجال الجغرافي بتضاريسه وساكنته. (124)

**العامل البشري:** يتميز إقليم تازة بتركيبية بشرية متنوعة : قبائل عربية، قبائل معربة و ثالثة أمازيغية. هذا المعطى يمكن أن يوحى للعدو الخارجي بإمكانية نجاح المغامرة العسكرية بأقل الخسائر عبر استغلال فرضية التناقض إن لم يكن الصراع بين الإثنيات، لكن الواقع يفرض على مختلف هذه القبائل الدخول في نظام اللفوفية أي التحالف كلما كان هناك خطر خارجي مصدره المخزن أو من بعده فرنسا وإسبانيا.

فرنسا بالذات عاشت تجربة انخراط قبائل تازة في الجهاد الذي قاده بوعزة الهبري والشنكيطي وعبد المالك... على الحدود الشرقية مع الجزائر.

**العامل السياسي:** منذ بداية القرن التاسع عشر كثفت القوى الأوروبية من اهتمامها بدول شمال إفريقيا تمهيدا للتغلغل الاقتصادي الذي تبعه الاستعمار. اهتمام جعلها على معرفة

(121) لويس أرنو: زمن... ص: 219

(122) انظر **ميمون مدهون:** المقاومة في منطقة تازة من خلال النص العسكري الفرنسي.

ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات. 1956-1900.

منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب، فاس. ص: 89.

(123) نفس المرجع: ص: 89

(124) **TAOUFIK AGOUMI** : Quatorze ans de résistance dans la région de Taza. Mémorial du Maroc.

Vol : 5. Impression Atlanta. Madrid. 1985. P : 135

دقيقة بكل مجالات الحياة بما فيها علاقة المخزن بالقبائل المطبوعة بالصراع. فكما سبق التطرق إلى ذلك لم تكن القبائل مستعدة للخضوع إلى السلطة المركزية بشكل مادي وفعلي حفاظا على استقلالها وعلى بنيتها السياسية والاجتماعية. فكلما حاول المخزن فرض سلطاته المحلية وما ينتج عن ذلك من تكاليف وواجبات كانت القبائل تتحين الفرصة للثورة على السلطة المعينة والانضمام إلى أية حركة مهدوية تهدف إلى إسقاط السلطة وإعلان الجهاد.

من أجل تحقيق هدف ليوطي " تازة قبل كل شيء " ارتكزت الإستراتيجية العسكرية الفرنسية منذ البداية على العناصر التالية :

- تحريك القوتين العسكريتين المتواجدين بكل من الجزائر وفاس اتجاه تازة.
- تأمين ممر تازة عبر تركيز القوات العسكرية بالمدينة التي تحولت إلى قاعدة خلفية للعمليات العسكرية ضد القبائل المجاورة.
- استعمال أحدث الأسلحة : الطيران، المدفعية ووسائل الاتصال
- إنشاء مراكز عسكرية متقدمة للقرب مثل **باب المروج وتايناست بالبرانس** كحضور عسكري وسياسي دائم ومستقر لمراقبة حركة السكان والتدخل الفوري والفعال لإخماد الثورات المتكررة أو "الغدرات" كما يسميها سكان القبيلة،

وذلك في محاولة لضرب مكامن القوة لدى القبائل المتمثلة في: التضاريس الوعرة، شجاعة المقاتلين المتمرسين على القتال خلال المواجهات العسكرية السابقة مع جيش المخزن، إضعاف معنويات السكان من خلال سياسة حرق المحاصيل الزراعية بالقرى وتطبيق الحصار الاقتصادي والتجاري.

عندما دخل الجيش الفرنسي مدينة تازة شهر ماي 1914 كتب **ليوطي** إلى السلطان **مولاي يوسف** يخبره بالحادث والحالة العادية والهادئة بالمنطقة قائلا : " وصلت إلى مدينة تازة يوم 17 ماي على قوات الجنرال **بومكارتين** والجنرال **كورو**، ولم تبد لا قبائل **التسول** ولا **البرانس** أية مقاومة. أما أهل تازة، فقد رحبوا بنا. أخبركم بأن صلاة الجمعة قد أقيمت باسمكم". (125)

القوات الفرنسية بمدينة تازة سنة 1914.



(125) ميمون مدهون: المقاومة... مرجع سابق. ص: 92.



لكن هل هذا الإحساس بالارتياح والنشوة بالانتصار سيستمران ؟ وهل كان ليوطي على وعي تام بتعقيدات المغامرة العسكرية بجبال **البرانس** والقبائل المجاورة ؟

- تتمثل فلسفة **ليوطي** حول إخضاع العالم القروي في العناصر التالية:
- استخدام مصطلح ملطف أي " التهدئة " *pacification* بدل الحرب كما هو الشأن بالنسبة لمفهوم الحماية بدل الاستعمار.
  - تبني سياسة " بقعة الزيت " *tache d'huile* أي الانتشار الهادئ للسيطرة الفرنسية.
  - إظهار القوة العسكرية لتلافي استعمالها.
  - الاقتصاد في المال والرجال والوقت بالاعتماد على أعيان القبائل كقواد بهدف التحكم والسيطرة على السكان.



بداية توسع القوات الفرنسية خارج تازة على حساب التسول ومكناسة

إذا كانت فلسفة **ليوطي** هاته قد نجحت في العديد من مناطق المغرب كالسهول الأطلسية وحوز مراكش فإن قبيلتي **زاين بقيادة موحى أو حمو الزاياني والبرانس** سيفرضان على المقيم العام الفرنسي - **ليوطي** - إعادة النظر في مجمل الإستراتيجية العسكرية الفرنسية. **فموحى أو حمو الزاياني** الذي كبد الجيش الفرنسي بالأطلس المتوسط خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، سيستمر في القتال إلى حدود سنة 1921، رغم نجاح فرنسا في احتلال خنيفرة ونواحيها وتعيين أحد أبنائه قائدا على المنطقة. أما **البرانس** ورغم احتلال مدينة تازة سنة 1914 فإنها ستستمر في المقاومة لمدة 12 سنة أخرى ولم تخضع بصفة " نهائية " إلا سنة 1926، معتمدة على مكامن القوة التي تتوفر عليها.

**من الناحية الاقتصادية**، تتوفر القبيلة على مجال طبيعي غني بثرواته الفلاحية والمعدنية: زراعة الحبوب، أشجار الفواكه، الملح... وعلى عدد من الأسواق الكبرى التي تحج إليها مختلف القبائل المجاورة : **التسول، والحياينة، غيائة، كزناية، هواره، مغراوة، بني وراين وقبائل الريف** بالناطور والحسيمة...

**من الناحية السياسية**: يؤهلها الموقع الجغرافي أي القرب من الحدود الشرقية للمغرب والريف ثم العاصمة فاس وكذا نسيج العلاقات الودية والتجارية مع مختلف القبائل إلى أن تكون حاضرة بقوة في مجمل الأحداث السياسية سواء عبر معارضتها للمخزن أو تبني دعوة الحركات الجهادية وزعمائها.

وبحكم الموقع الجغرافي كذلك، كانت مختلف القبائل المجاورة للبرانس تتشابه من حيث بنيتها الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية وهو ما جعلها تتحالف كلما كان خطر المخزن ثم فرنسا يهدد هذه البنيات المستقلة عن المخزن. هذا الذي يطمح إلى تدمير هذه البنيات عبر تنصيب مؤسسات سياسية وإدارية هرمية :عامل، قائد، شيخ، مقدم.

**من الناحية الجغرافية:** تتميز المنطقة بتواجد نسبة كبيرة جدا من الجبال الوعرة والغابات والأدغال وهي مؤهلات طبيعية إيجابية تستفيد منها القبيلة في كل عمل حربي إن بالتهيب أو الهجوم أو التراجع إلى القواعد الخلفية في انتظار نضج الظروف للحركة من جديد.



بداية دخول الجيش الفرنسي قبيلة البرانس

من أجل إفشال العمليات العسكرية الفرنسية وبالنظر إلى مكان القوة المتوفرة عمدت كوندفالية **البرانس** إلى نهج سياسات متكاملة فيما بينها، تجمع بين ما هو محلي وإقليمي وجهوي:

- تفعيل المؤسسات الاجتماعية والسياسية المحلية المتمثلة في "أجماعة" و "بولرباع" الذي وحسب **ترينكا** نفسه - والروايات الشفوية المتواترة - " يتم إعلان الجهاد من طرف بولرباع. كل محارب يحصل على الأسلحة والذخيرة التي يتم شراؤها كذلك بفضل الأموال المودعة لدى " اجماعة". يعين بولرباع قائد الحرب وفي غياب شخصية مؤهلة لذلك، يقوم كل ربيع من القبيلة الأمر بتعيين قائد ينتمي إليه. خلال احتلال فرنسا **لمسون**، عين **الحاج محمد الشواي** قائدا للحرب من طرف **أحمد دعبد القادر** (الطايفة)، و**بوكعبيات** (بني فقوص) رئيسي **بولرباع**. (126)

- تفعيل آلية اللف أي التحالف بشكل تصاعدي: على مستوى الكوندفالية بين القبائل الأربع (بني فقوص، الطايفة، أوربة، بني بويغلا) وعلى مستوى الإقليم والجهة، أي الدخول في تحالف أوسع مع القبائل المجاورة وكذا التي تليها في الجوار. ظهر هذا جليا من خلال الانخراط الفعلي في الحركات الجهادية بغض النظر عن الانتماء القبلي للزعيم. لقد بايعت **البرانس**،

126) TRENGA : les branes... op.cit. P : 303

**الهبري، الجيلالي الزرهوني، المولى عبد الكبير،** كما انضمت إلى كل الحركات المتعددة للمقاومة والجهاد التي كانت بقيادة : **محمد الحجامي** منذ حصاره لفاس، **محمد الغازي، الشنكيطي، ألبرت بارتلز** الملقب **بالسي هرمان، عبد المالك الجزائري ثم محمد بن عبد الكريم الخطابي.** فإمكانية تفعيل اللف والتحالف من طرف البرانس كانت أسسها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية متوفرة منذ عقود من خلال العلاقات الاقتصادية والتجارية التي تربطها بمختلف القبائل المتواجدة شرق فاس ونواحي تازة وكذا الريف بحكم التبادل التجاري مع ثلاثة مراكز أساسية : فاس، تازة ومليلية.

- **توظيف مبدأ "الحرب خدعة" : لمدة 12 سنة استطاعت البرانس فرض إيقاعا ومسارا للحرب على فرنسا اعتمادا على هذا المبدأ الذي توظفه الجيوش الحديثة في حروبها كتاكتيك عسكري ناجح.**

**من الناحية الاجتماعية:** كانت منطقة البرانس ملجأ آمنا للعديد من الأسر والعائلات النازحة لسبب من الأسباب من قبائلها الأصلية بالريف أو جباله... بحيث تصبح الهجرة عاملا لتدوير الخلافات ونسج شبكة من العلاقات الاجتماعية الدائمة التي تتحول إلى قاعدة صلبة لعلائق سياسية غنية وإيجابية.

منذ 1914 دخلت الجيوش الفرنسية منطقة البرانس التي لا تبعد عن تازة إلا ببضع كيلومترات. استعملت فيه أحدث الأسلحة العسكرية كالطيران والمدفعية والديابات والرشاشات حتى أن السكان وإلى وقت قريب جدا أي التسعينات من القرن الماضي كانوا لا يزالون يجدون عبوات وقنابل وذخيرة حية يتم تفجيرها في الحقول والوديان.

بالرغم من المقاومة العنيفة، استطاعت الجيوش الفرنسية الإخضاع المؤقت للمنطقة وتشديد مراكز عسكرية متقدمة بمختلف القبائل المكونة للبرانس. في مواجهة هذه الوضعية، لازال السكان يتذكرون سنوات المقاومة ليس بذكر السنة الهجرية أو الميلادية بل بالأحداث وتسمياتها : **عام الجوع، عام الهربة، الغدرة الأولى أو الثانية...** بل الأدهي من ذلك يستعملون هذه الأحداث لتأريخ الوقائع الاجتماعية وغيرها : الولادة، الوفاة، الزواج... حيث يقال أن فلان ازداد في عام الهربة...

فإذا كان عام الجوع يذكر الناس بالجفاف سنة 1945 وما عانوه من نهب للخيرات والتجنيد الإجباري للمساهمة في الحرب العالمية الثانية فإن **"عام الهربة"** و **"عام الغدرة"** يلخصان جزءا من استراتيجية المقاومة بالبرانس.

لم يكن ميزان القوى العسكري وكذا سياسة حرق المحاصيل والحصار الاقتصادي يسمح للبرانس بالحفاظ على شعلة المقاومة متقدة إلا بالنزوح نحو قواعد خلفية آمنة. فأمام القصف الجوي والمدفعي نزحت دواوير بأكملها نحو القبائل المتواجدة شمال تازة على مقربة من المناطق التي تحتلها إسبانيا وهو الحدث الذي يتم التأريخ له أو ضبطه تحت اسم **"عام الهربة"**.

في منطقة اللجوء هاته، المتميزة بتضاريسها الوعرة يتم التهييء للمقاومة بتنسيق مع من تبقى من السكان بديارهم والذين تعتقد السلطات الفرنسية أنهم خضعوا لسلطتها بشكل نهائي. لكن هذا الخضوع الظاهري يتحول إلى ثورة أو "غدرة" أعنف من سابقتها كلما استرجعت القبيلة أنفاسها لبعض الوقت وهيأت الظروف المادية للمواجهة.

بنهجها لتكتيك "الغدرة"، استطاعت البرانس كما هو حال القبائل المجاورة ولمدة 12 سنة أن تفرض على الجيش الفرنسي إعادة النظر في استراتيجيته وخطته العسكرية وأن تجعل من "نزتهته" بالمنطقة مجرد حلم استفاق منه مبكرا، وهذا ما عبر عنه **الجنرال كيوم GUILLAUME** بالقول : "لم تخضع أية قبيلة من القبائل دون مقاومة والبعض لم يخضع إلا بعد أن استنزف آخر وسيلة للمقاومة. ولم تأت قط قبيلة إلينا إلا بعد هزيمتها في ميدان القتال. كل مرحلة من مراحل التقدم كانت نهاية معركة، وكل حركة كانت توجد حدودا جديدة، كان يجب أن يدافع عنها بخطر من الحصون يحرسها رجالنا لسنوات طويلة

وهم معرضون للخطر دون أن يجنوا أي مجد. (127)

لقد استطاعت البرانس لوحدها أو ضمن تحالف قبلي كبير بالمنطقة التصدي للجيش الفرنسي في مواجهات عسكرية دامية تكبدت فيها خسائر لا تحصى في مواردها الاقتصادية والبشرية لكن في المقابل كان على القوات الفرنسية ومنذ دخولها فاس أن تحصى خسائرها الكبيرة كذلك وتعيش مرارة الهزيمة، وتعيد النظر في استراتيجيتها على ضوء المعارك التي خاضتها.

في الوقت الذي دخل فيه **ليوطي** بقواته مدينة فاس، عاش العالم القروي انتفاضة حقيقية منذ شهر أبريل 1912 :

- **آيت يوسي وآيت شغروشن** بقيادة **سيدي رحو** تحاصر ثكنة مدينة صفرو.
- **بني مطير** بقيادة **بويدمانى** تهاجم ثكنة الحاجب.
- أغلبية قبائل شرق وشمال فاس **الحياينة، لمتة، أولاد الحاج، الشراردة، التسول، بني سادن، بني وراين، غياثة، أولاد جامع، جنود المخزن** الفارين من الخدمة العسكرية ثم **البرانس** يحاصرون فاس من الجهة الشرقية ويخوضون معارك ضارية بقيادة **الشريف محمد الحجامي** المنحدر من قبيلة **بني زروال** والمنتتمي إلى **الزاوية الدرقاوية**.

إن مشاركة **البرانس** ضمن هذا التحالف القبلي الكبير بقيادة زعيم سياسي ديني وتحت راية واحدة كتب عليها "إلى الأمام للجهاد" (128)، ورغم هزيمته أمام القوات الفرنسية، ستكون مقدمة لاقتناع **البرانس** وقبائل أخرى بتأزده **بالحجامي** كشخصية تتوفر على كفاءات ومؤهلات لقيادة المقاومة بمنطقة تازة.

هذه المؤهلات اعترف بها **ليوطي** نفسه بإندهاش وإعجاب كبيرين على ضوء الوثائق التي تركها **الحجامي** بعد الهزيمة والتراجع نحو تازة، قائلا "أكد أنها المرة الأولى التي أرى فيها وثيقة عسكرية محلية، مهياة بدقة وذكاء كبيرين حول الضرورات التكتيكية". (129)

لضرورات استراتيجية وتكتيكية، ستتراجع **البرانس** والقبائل المجاورة بقيادة **الحجامي** إلى القواعد الخلفية بمنطقة تازة، لما توفره جبالها وغاباتها ووديانها وأدغالها من إمكانات طبيعية ومادية وبشرية إيجابية في حرب المغاور التي ستقودها ضد الوجود الفرنسي بتأزده منذ 1914.

كانت البداية أواسط شهر غشت 1914، بظهور **مولاي محمد الغازي** من قبيلة **صنهاجة** الذي وحسب الباحث **سمير بوزوينة**، ولعدم نجاحه في تشكيل القاعدة البشرية لحركته من قبيلته "فإنه وجد الصدر الرحب لدى **البرانس** خاصة أهل **أوربة** الذين التفوا حوله، وانطلقوا معه يوم 14 غشت 1914 إلى ضريح **سيدي أحمد زروق** المكان الذي سوف تنطلق منه الحركة الجهادية **لمولاي محمد الغازي**، لكن الانطلاقة هاته لم تكلل بالنجاح، وانتقل بعد ذلك إلى **بني افتح وأولاد جرو**" (130)

وحسب نفس الباحث، حاول **مولاي محمد الغازي** تشكيل تحالف قبلي عريض يتحالف مع

(127) ميمون مدهون : المقاومة... مرجع سابق. ص : 93

(128) Pour plus de détails voir **DANIEL RIVET** : LYAUTEY et l'institution du protectorat français au Maroc. 1912 1925. Tome I. édition l'harmattan. Paris. 1988. P : 133 à 135.

(129) **IDEM** : p : 134

(130) **سمير بوزوينة** : مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسي للمغرب. 1912-1925. ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات. 1900-1956. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب. فاس. ص: 99.

المجاهد الشنكيطي **بواد مسون** تحت قيادة واحدة. لكن أمام رفض هذا الأخير رجع إلى منطقة **باب تيمالو بمكناسة الشرقية** ليشكل قاعدة بشرية من **صنهاجة، بني افنح وأولاد جرو أي البرانس** ثم **مكناسة ومغراوة وأولاد بوريمة**. ورغم ضعف هذا التكتل القبلي والإمكانات المادية القليلة، فإنه حاول تنظيم هجمات متكررة على القوات الفرنسية المتجهة نحو الشرق كان من نتائجها هزيمة الحركة الجهادية ولجوء **مولاي محمد الغازي** إلى المنطقة الإسبانية. (131)

فشل الحركة الجهادية بقيادة **الغازي** لم يمنع استمرار مقاومة **البرانس** واحتضانها داخل المجال البرنوسي لزعماء جهاد من مستوى عال أمثال : **محمد الحجامي** و**عبد المالك الجزائري والخطابي**.

مع نهاية سنة 1914 وبداية سنة 1915، خاضت **البرانس** تحت قيادة **محمد الحجامي** معارك كبرى لخصها الباحث **محمد مدهون** قائلا: "فبينما كانت قوات تازة و**بولجراف** تقوم بالزحف على **الحجونة** التي أحرقها قامت قبيلة **البرانس** بتنظيم هجوم مكثف في 7 و5 دجنبر محاولة منهم الاستيلاء على الإمدادات المتجهة إلى تازة. فكان من **الجنرال هنري أن كلف الكولونيل BULLEUX** بالقيام بعمليات ضد **البرانس** ومعه المجموعة المتنقلة بتازة مكونة من أربع كتائب وسريتين وعشرة مدافع. ثم توجه **BULLEUX** إلى **سيدي أحمد زروق** حيث تكبدت وحدته خسائر جسيمة في 22 يناير بسبب تساقط الأمطار والثلوج ولم يدخل الرتل تازة إلا بصعوبة وفي حالة يرثى لها.



خسائر الجيش الفرنسي

وفي 24 مارس هجم محاربوا **التسول والبرانس وغياثة** على زرارقة ولم يتوانوا على الانقضاض على المعسكر طيلة ثلاثة أيام متتالية. وقعت أعنف الهجومات في 25 - 26 مارس.

وفي **وادي أمليل** اجتمع **التسول والبرانس** بقيادة **الحجامي** في شمال المعسكر ودفع **كورو** بكتائبه لمهاجمة هؤلاء الثوار وكان القتال شاقا نظرا للمقاومة التي أبدتها العدو". (132)

ولتبرير هذه الهزائم المتتالية وبعد الاعتراف بكون الجيش الفرنسي على وشك الانهيار، ادعى **الجنرال**

(131) نفس المرجع. ص : 100.

(132) ميمون مدهون: المقاومة... مرجع سابق. ص : 95.

**ليوطي** أن السبب في ذلك يعود إلى ضعف القوات الفرنسية من حيث العدد والذخيرة بالمقارنة مع قوة القبائل وتزايد نشاطها الثوري. (133)

مع بداية سنة 1915 ستظهر شخصية جديدة في الحياة السياسية للبرانس خلفا لمحمد **الحجامي** الذي اختفى من الواجهة إلى حدود 1919، السنة التي سيلتحق فيها رفقة أولاده الثلاث بالثورة الريفية بورغة شمال تاونات.

لم تكن هذه الشخصية إلا **عبد المالك الجزائري حفيد الأمير عبد القادر** الذي قاد الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي بالجزائر واتخذ المغرب الشرقي والقبائل المستنقرة بين فاس وتازة، كقواعد خلفية لتوفير الدعم المالي والبشري لحركته الجهادية.

فحسب **دانيال ريفي DANIEL RIVET**، يتوفر **عبد المالك الجزائري** على مسار سياسي وعسكري مهم : ولد بدمشق وتكون في الجيش العثماني إلى أن أصبح ضابطا. دعم ثورة **الجيلالي الزرهوني** قبل أن ينقلب عليه ويلتحق بالمخزن العزيمي - **مولاي عبد العزيز**- اعتقل من طرف السلطان **عبد الحفيظ** قبل أن تتدخل فرنسا ليطلق سراحه وتعيينه مفتشا للأمن بطنجة. لكن دخول الأتراك في الحرب العالمية الثانية ضد فرنسا دفعت **عبد المالك** إلى اللجوء إلى المنطقة الإسبانية متأثرا بأفكار الوحدة الإسلامية لينظم المقاومة المسلحة ضد فرنسا. (134)

تشكلت الحركة الجهادية بالبرانس في البداية من قطبين أساسيين : قطب القبيلة وخاصة "أوربة" التي تتوفر على إرث سياسي ديني غني بالدلالات والرمزيات وله جذور ضاربة في عمق تاريخ شمال إفريقيا من خلال دورها بقيادة **كسيلة** في مقاومة الغزو العربي وكذا كونها النواة الأساسية للدولة الإدريسية على عهد **إسحاق بن عبد الحميد الأوربي** بمنطقة زرهون نواحي مكناس. أما **عبد المالك** فيمثل القطب الآخر الذي بدوره يحمل إرثا تاريخيا يمتزج فيه الديني بالسياسي من خلال الحركة الجهادية التي يقودها في المنطقة الممتدة بين غرب الجزائر وشرق فاس، خلفا لجدّه **الأمير عبد القادر**.

يمكن اعتبار التقاء هذين القطبين ربطا للحاضر بالماضي ومحاولة من الطرفين، استحضار الأصول الأولى لتجربة المقاومة والدعوة التي عاشتها **أوربة البرانس** قبل أن يغدر بها من طرف العرب في تجربتين مبررتين : مقتل **كسيلة** رغم إسلامه ومقتل **إسحاق** رغم فضائله على الدولة الإدريسية.

حول هذان القطبان تشكل تحالف كبير يضم زعماء جهاديين آخرين مثل :

**محمد بن مامون الشنكيطي** الذي رفض في السابق التحالف مع **محمد الغازي**. التحق **الشنكيطي** بإيعاز من الزاوية الدرقاوية بتازة لتنظيم المقاومة بها. بعد ممارسة التدريس بالجامع الكبير للمدينة، أعلن سلطانا شهر ماي 1913 من طرف سكان المدينة وقبائل **غياثة، التسول، كزناية، بني بوياحي والبرانس**. اشتهر بقتاليته الكبيرة وهجوماته المتكررة على القوافل العسكرية الفرنسية المتجهة نحو الشرق. (135)

**ألبرت بارتلز "السي هرمان"**: دخل إلى المغرب منذ بداية القرن العشرين لممارسة التجارة، لكن يلقي عليه القبض من طرف القوات الفرنسية لكونه ألمانيا ونفي إلى الجزائر ثم هرب واستقر بمليلية. انضم إلى حركة **عبد المالك** كقائد للمقاومة ووسيط بين عبد المالك وألمانيا التي دعمته بالأموال والمدربين لمقاتلي القبائل.

(133) **محمد بن جلون** : قراءة في تاريخ الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة وجيش التحرير بجهة تازة الحسيمة تاونات. ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات. 1900-1956. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب. فاس. ص: 50.

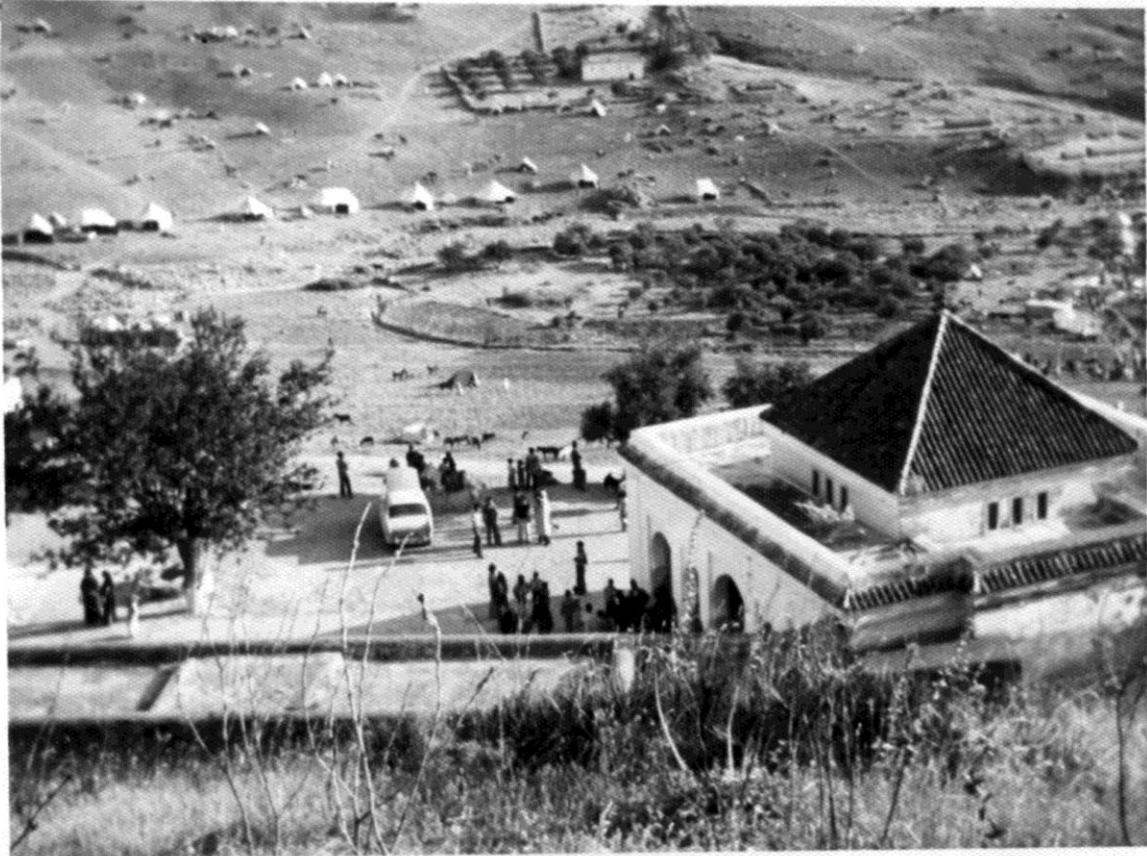
134) D.RIVET: LYAUTEY...OP.CIT . T: II. P: 108 – 109

135) D. RIVET : LYAUTEY... OP.CIT. T: II. P : 108

قبل هذا التاريخ أي شهر مارس 1915، كانت **البرانس والتسول وغياشة** قد شكلت من جديد النواة الصلبة لمقاومة الغزو العسكري الفرنسي، وهي النواة التي سيحدها **عبد المالك** سنة 1916 جاهزة ومتمرسة على القتال. فحسب الباحث **سمير بوزويته** انطلقت الشرارة الحقيقية للمقاومة يوم 24 مارس 1915 "إذ هاجم **البرانس** بتحالف مع قبائل **التسول وغياشة** القوات الفرنسية المرابطة بالمنطقة، وقتلوا في صفوف القوات الفرنسية القبطان لوفير LE FAIRE وجرحوا ملازما واحدا وأعادوا الهجوم على قوات العقيد **BULLEUX** والذي انتهى بقتيل واحد وثمانية جرحى". (136)

وبناء على المعطيات التي قدمها نفس الباحث، يمكن تلخيص المواجهات بين **البرانس** والجيش الفرنسي في المحطات التالية: (137)

- يوم 5 ماي 1915 : استمرار تهديد وهجمات **البرانس** على القوات الفرنسية دفع بالجيش الفرنسي إلى تعزيز قواته بشمال تازة ب 5000 جندي من المجموعات المتحركة بقيادة المقدم **درانكوان DRANGOIN**.
- مهاجمة **البرانس** للقوات الفرنسية بمسالك **سيدي أحمد زروق** وتكبيدها خسائر في الأرواح بلغت 7 قتلى و 15 جريحا.



ضريح سيدي احمد زروق بالبرانس

- محاولة انتقام الجيش الفرنسي أفقدته من جديد 7 قتلى و 14 جريحا شمال **سيدي أحمد زروق**.
- مهاجمة **البرانس** مستودعا للمؤن وكذا المركز العسكري **لجبل الحلفة** جنوب غرب **سيدي أحمد زروق**، نتج عنها مقتل جندي فرنسي واحد وجرح أربعة.

- (136) **سمير بوزويته** : مساهمة... مرجع سابق. ص : 102.

- (137) **نفس المرجع** : من ص : 102 إلى 106.

- هجوم آخر نفذته **البرانس**، قتل على إثره 3 جنود فرنسيين، وخسائر بشرية كبرى بين **البرانس** التي سيعمل العقيد **هنري سيمون** على إحراق محاصيلها الزراعية منتصف ماي 1915.
- تظاهر بعض فرق **البرانس** بالخضوع وتراجع قوات **هنري سيمون** عن منطقتهم، استغلته **البرانس** لجمع 1500 مقاتل قرب **جبل الحلفة** لتقع المواجهة العسكرية يوم 24 ماي 1915 نتج عنها خسائر كبيرة بين أفراد القبيلة و 13 قتيلا من الجنود الفرنسيين
- احتلال منطقة **عين الثلاثاء** بفرقة أولاد جرو يوم 27 ماي 1915 وإقامة مركز عسكري **باب المروج** بتراب قبيلة **أوربة**، لم يمنح قبيلة **بني فقوص** من الانتفاضة والتراجع عن عقد الهدنة بمجرد ما انتقلت القوات الفرنسية إلى منطقة **ورغة بتاونات**.
- شكلت سنة 1916 مرحلة متميزة في المقاومة المسلحة **للبرانس** بقيادة **عبد المالك** بتنظيم الهجوم على المناطق المحتلة خاصة **باب المروج**.



بداية انزال باب المروج



بداية تحصين باب المروج

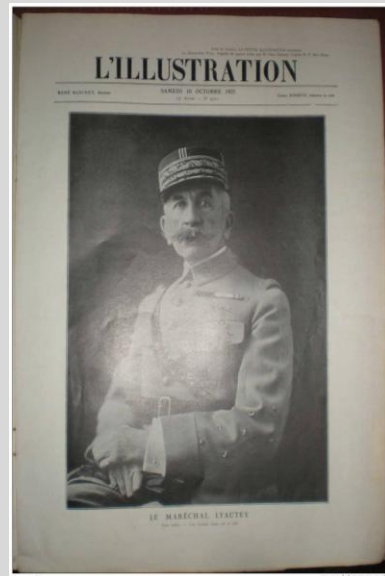


- شهر أبريل 1916، استطاع مقاتلوا البرانس إفشال حملات المطاردة التي قادها الجنرال شاربي **CHARRIER**.
- شهر يونيو 1916، تحركت قبيلة بني بويغلا لتفقد بتحالف مع جيرانها هجوما على القوات الفرنسية بقيادة العقيد أوبر **AUBERT** بواد الحد، نتج عنه خسائر كبيرة لدى التحالف مقابل مقتل 14 جنديا فرنسيا و 28 جريحا.
- أواخر شهر يوليو 1916، نظمت البرانس هجوما على مركز جبل الحلفة نتج عنه مقتل ضابط فرنسي وجرح 5 جنود.
- بعد أن توصل الجيش الفرنسي بإمكانيات عسكرية جديدة، تمكن ما بين شهر أبريل وأكتوبر 1918 من السيطرة على بني بويغلا ثم أهل الواد قبل تأسيس مراكز عسكرية متقدمة ببوهارون وكهف الغار لضمان السيطرة الفعلية على البرانس التي ومنذ 1914 حافظت على استمرارية المقاومة المسلحة رغم :
  - قرب القبيلة من تازة التي تتواجد بها قواعد عسكرية متعددة الاختصاصات : مطار للطيران الحربي، 5 مخيمات عسكرية بالإضافة إلى السكة الحديد التي تؤمن نقل الجنود والمؤن والعتاد.
  - تخلي مختلف الزعماء الأجانب عن قيادة مقاومة القبيلة وجيرانها.
  - اختلال ميزان القوى العسكري لصالح فرنسا من حيث عدد الجنود ونوعية السلاح: طيران، مدفعية، رشاشات...

### 3- البرانس وثورة الريف: مقاومة بألوان جمهورية



الخطابي



ليوطي

على الحدود الشرقية والشمالية للبرانس تتواجد قبائل الريف: **المطالسة ومغراوة وكزناية** التي تليها مباشرة قبيلة **بني ورياغل**. هذه الأخيرة وكغيرها من قبائل الريف الأخرى وإن كانت لا تشترك مع البرانس في الحدود الجغرافية فإنها تتوفر على قواسم مشتركة متعددة وتنسج فيما بينها علاقات وطيدة.

• **جغرافيا:** تعتبر منطقة البرانس ومرنيسة وصنهاجة الامتداد الطبيعي للريف من حيث التضاريس والمناخ والغطاء النباتي وبالتالي نمط الحياة.

• **إثنية:** وبالرغم من التعريب الذي خضعت له قبائل البرانس ومرنيسة وصنهاجة والتسول فإن تأثير أصولها الأمازيغية لازال قويا وجليا في الحياة العامة وتلتقي بذلك مع قبائل الريف- في البنيات الاجتماعية والسياسية ونسق القيم.

• **اجتماعيا:** منذ القديم والمجموعات السكانية تعيش حركية دائمة في الاتجاهين حتى أن هناك عددا كبيرا من العائلات من أصل ريفي لجأت في وقت سابق إلى قبيلة البرانس واستقرت بها، ولم تجد أية صعوبة في الاندماج: تملك الأراضي، دخلت في مصاهرة مع العائلات الأخرى، مارست أنشطتها وحرفها الخاصة بها.

• **اقتصاديا:** لم تشكل التضاريس الوعرة وصعوبة المسالك واللغة المتداولة أي عائق أمام التبادل التجاري بين قبائل تازة ونظيرتها بالريف. فحسب **ترينكا TRENGA**، كان هناك طريقان تجاريان يربطان المنطقتين، أحدهما ينطلق من مغراوة عبر أولاد بوريمة، المطالسة، وادي كرت ثم زبوجة والثاني ينطلق من كزناية عبر اثنين أزرو، عزيز ميصار ثم زبوجة. يمول هذا الشريان الريف بالمنتوج الفلاحي على الخصوص ويمول البرانس وغيرها بالسلع الصناعية بما فيها الأسلحة والذخيرة، الشيء الذي دفع **ترينكا TRENGA** إلى الاعتراف بعدم جدوى الحصار الاقتصادي المضروب على البرانس من طرف فرنسا سنة 1915. (138)

• **سياسيا:** بغض النظر عن بعض الاختلافات البسيطة، عرفت القبائل المتواجدة بالريف وتازة نفس البنيات السياسية ذات الطابع الجمهوري، وتوحدت في المواقف السياسية ضد سياسة المخزن الهادفة إلى تدمير هذه البنيات، كما عاشت تجربة الثورة بانضمامها إلى زعماء الحركات المهدوية التي انطلقت من تازة أو التي أتت من الشمال الشرقي.

شكل التاريخ المحلي بقواسمه المشتركة هذه أساسا لانضمام البرانس وجيرانها إلى ثورة الريف بقيادة **بن عبد الكريم** الذي وبعد تكبيد الجيش الإسباني أكبر الهزائم في حياته بشمال المغرب، وجه قواته نحو فاس، وزان وتازة بدعم من القبائل ومن ضمنها البرانس أواخر سنة 1924.

لقد أصبح الممر الاستراتيجي ما بين فاس وتازة في خطر وأصبحت مدينة تازة بقواعدها العسكرية في وضعية غير آمنة بسبب هذا التحالف: **بن عبد الكريم، البرانس والتسول**، مما دفع **بالجنرال سيريكسي SERRIGUY** إلى التعبير عن حالة القلق التي يعيشها الجيش الفرنسي قائلا "لا نتحارب ... مع الريفيين الحقيقيين، لكن مع القبائل التي كانت بالأمس خاضعة واليوم تائرة بتحريض من الريفيين" (139)

ومن جهته صرح **الكولونيل فوانو VOINOT** " توغل العدو إلى البرانس، وقام بهجمات عديدة على مراكزنا وعلى فرقنا المساعدة، كما حاول **عبد الكريم** شق جبهتنا لما توقف بوزان وورغة حتى يتمكن من السيطرة على تازة، وشن هجوما عنيفا في 23 يونيو 1925 بمساعدة العديد من متمردي القبائل المجاورة كما انضمت إليه **التسول والبرانس**. وبعد مرور يومين عقد اجتماع حضر فيه كل من

---

138) TRENGA: les branes... op.cit. P: 414.

139) T. AGOUMI: quatorze ans... op.cit. P: 140.

**الجنيرال DARYAN و CHAMBRUN والجنيرال ليوطي** حيث أمر هذا الأخير بحماية تازة بأي ثمن وبإخلائها من المدنيين. (140)

وعلى ضوء هجوم **البرانس** يوم 1925/07/20 على المركز العسكري بباب المروج الواقع على بعد 36 كلم من تازة، وكذا المقاومة المسلحة للقبائل، حسمت الإقامة العامة في الخيار العسكري كخيار أساسي لإخضاع القبائل من جديد تجسد في: (141)

- الاستخدام الكبير والممنهج للسلاح العصري: الدبابات، الرشاشات، المدفعية، الطيران الحربي.
- تحديث البنية التحتية كالسكك الحديدية والطرق لتمكين القوات العسكرية الفرنسية من التحرك بسهولة وأخذ المبادرة.
- مغربة الحرب أي إحداث المواجهة بين **البرانس** والقبائل الريفية كما حدث حينما دفعت فرنسا بعض الأفراد من القبيلة بقيادة **القائد الخلاصي** من قبيلة **أوربة** لمواجهة الريفيين، لكن **الخلاصي** (سيغدر) أفشل الهدف الفرنسي بتراجعه عن تنفيذ المهمة.
- تجنيد المغاربة وتنظيمهم في فرق الكوم وغيرها من التسميات تحت قيادة ضباط فرنسيين وتكليفهم بأصعب المهام العسكرية بهدف إحداث الشرخ في الجسد المغربي وتقليص عدد الخسائر في القوات الفرنسية.

إن استمرار المقاومة المسلحة للبرانس ستدفع الجيش الفرنسي إلى بذل مجهود عسكري أكبر لضرب القبيلة في مواقع انطلاق مقاتليها. فخلال معركة السيطرة على أحد الجبال صرح **العقيد فوانو VOINOT** قائلاً: "خلال هذه المرحلة، أسندت قيادة المنطقة الشرقية إلى **الجنيرال BOICHUT** الذي جهز للسيطرة على **جبل أمسفت**، التشكيلة التالية:



جبل امسافت

(140) **ميمون مدهون**: المقاومة... م.س.ص: 107

(141) لمزيد من التفاصيل انظر: **سمير بوزويتة**: مساهمة... م.س.ص: 107

- ستة عشر كتيبة  
- أربع سرايا  
- خمسة عشر سرايا مدفعية  
- مجموعتان من الرشاشات  
وقد قسمت هذه الوحدة إلى قسمين:  
- مجموعة الغرب بقيادة العقيد **DOSSE**  
- مجموعة الشرق بقيادة **CORAP**  
لقد نجحت هذه الوحدات في إخضاع **البرانس**، لكنه بالرغم من ذلك استمر المتمردون في مواجهتنا". (142)

ولوضع حد نهائي للمقاومة **البرنوسية**، يضيف نفس الباحث أن القيادة العليا للجيش الفرنسي اعتمدت على "خطة التطويق التالية:  
**من الجهة الغربية: المجموعة المتحركة التي يقودها العقيد DOSSE**  
**من الجهة الشرقية: المجموعة المتحركة التي يقودها العقيد CORAP**

لقد نجحت هذه الخطة في تطويق **البرانس**، وإخضاعهم بشكل نهائي، كما أن هزيمة **محمد ابن عبد الكريم الخطابي** لعبت دورا مهما في تراجع المقاومة **البرنوسية** وإعلان الاستسلام في مركز **باب المروج**". (143)

وفي انتظار مرحلة جيش التحرير، شكلت الهزيمة والاستسلام بداية مرحلة جديدة في حياة **البرانس** التي عاشت في ظل نظام المنطقة العسكرية تبعا للتصنيف الاستراتيجي الفرنسي الذي قسم المناطق بالمغرب إلى منطقتين حسب درجة الخطر والتوتر: منطقة مدنية يحكمها مراقب مدني ومنطقة عسكرية عالية التوتر يحكمها إطار عسكري -كومندار أو قبطان - يتوفر من جهة على قوة عسكرية وعتاد وثكنة، يساعده في ذلك جهاز إداري محلي على رأسه قائد من أعيان القبيلة.

شكر خاص لكل من ساهم او دعم او شجع من اجل اخراج هذا العمل الى الوجود

---

(142) **سمير بوزويطة** : مساهمة... مرجع سابق. ص : 107

(143) **نفس المرجع** : ص : 108

## المراجع

1) **Mohammed ER-RAFAI ALBARNOSSE** : SOUVENIRS d'enfance d'un enfant des branes. TOPPAN PRINTING CO.L.T.D . JAPAN . TOKYO 1998

2) **BERNARD LUGAN** : Histoire du Maroc – des origines à nos jours. CRITERION – Paris – 1997 – 2<sup>ème</sup> édition

3) **MOUNIR BOUCHNAKI**: Jugurtha, un Roi berbère et sa guerre contre Rome : <http://www.mondeberbere.com/civilisation/histoire/Jugurtha.htm>

4) **CHARLE – ANDRE JULIEN** : Histoire de l'Afrique du nord, des origines à la conquête arabe. Edition Payothèque. Paris. France. 2<sup>ème</sup> édition. 1978

- 5) DOUTTE (EDMOND) :** le sultanat Marocain. Revue politique et parlementaire. Mois 9. 1909 .
- 6) TAOUFIK AGOUMI :** Quatorze ans de résistance dans la région de Taza. Mémorial du Maroc. Vol : 5. Impression Atlanta. Madrid. 1985
- 7) DANIEL RIVET :** LYAUTEY et l'institution du protectorat français au Maroc. 1912 – 1925. Tome I. édition l'harmattan. Paris.
- 8) J. BRIGNON et autres :** Histoire du Maroc. Librairie Nationale Casablanca. 1990.
- 9) EMILE ENNOUCHI :** Origines de l'homme au Maroc Revue Espéris Tamuda. Volume : 5. 1964.
- 10) KH. ALIOUA :** Le rapport Etat – Société dans le Maroc anté – colonial.D.E.S. Ecole des Hautes Etudes en sciences sociales. Paris.1980
- 11) P. PASCON, M. NAJI :** Les rapports du Makhzen avec ces marges au 19<sup>ème</sup> siècle. Le cas de la maison d'illigh. AAN.TOME : XXII.
- 12) VOINOT :** Taza et les Rhiata . imprimerie Typographique et Lithographique. L.FOUKE, Oran. 1920 .
- 13) J. L. MIEGE :** Le Maroc et l'Europe. Tome 4. 1<sup>ère</sup> édition. Edition la porte .
- 14) TRENGA :** Les branes. Archives Berbères 1915-1916. Raba .
- 15) AUGUSTE BERNARD :** Le Maroc. 8<sup>ème</sup> édit. Librairie Felix Alcan. Paris.1932 .
- 16) ROBERT MONTAGNE :** les berbères et le makhzen. Edition Afrique Orient. Casablanca. 1989 .
- 17) M. BELLAIRE :** Quelques tribus de la montagne de HABT. Archives Marocaines, volume :17, 1
- 18) G. Camps :** Berbères en marge de l'histoire. Editions des espérides 1980 .
- 19) E. AUBIN :** Le Maroc d'aujourd'hui, 8<sup>ème</sup> édition. Librairie Armand Colin, Paris,1913 .
- 20) G. AYACHE :** Société rifaine et pouvoir centrale Marocain (1850-1920), Revue Historique, N° 516, 1975, PUF .
- 21) M.LAHBABI :** le Gouvernement Marocain à l'aube du 20<sup>ème</sup> siècle. 2<sup>ème</sup> édition. Editeurs Maghrebins. Casablanca. 1975.
- 22) عبد الرحمان ابن خلدون:** تاريخ ابن خلدون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – 1992 – الطبعة الأولى – المجلد السادس .
- 23) نجيب زينب:** الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس – دار الأمير للثقافة والعلوم – بيروت لبنان. الجزء الأول – سنة 1995.
- 24) أحمد فرج:** اليهود واليهودية: التاريخ والعقيدة والأخلاق – دار الوفاء – المنصورة – مصر – طبعة 1 – سنة 1997.
- 25) عبد العزيز أكرير:** تاريخ المغرب قبل الإسلام – الممالك الموريتية الأمازيغية قبل الاحتلال الروماني. مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء – المغرب – الطبعة الأولى.
- 26) عبد الله العروي:** مجمل تاريخ المغرب – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – الجزء الأول – الطبعة الأولى -2007.
- 27) العربي أكنينح:** في المسألة الأمازيغية أصول المغاربة – مطبعة أنفو-برانت فاس : الطبعة الأولى – 2003.
- 28) فرح السواح:** أرام دمشق وإسرائيل، في التاريخ والتاريخ التوراتي. منشورات دار علاء الدين. الطبعة الأولى 1990. دمشق. سوريا.
- 29) العربي عقون:** الأمازيغ عبر التاريخ. نظرة موجزة في الأصول والهوية. التنوفي للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. الرباط. 2010.
- 30) قابريال كامبيس:** في اصول البربر، ماسينيسا او بداية التاريخ. تعريب وتحقيق العربي عقون
- 31) أحمد الزاهد:** العزو العربي لشمال إفريقيا، بين نبالة النص ودناءة الممارسة. نشر وتصنيف: مؤسسة تالوت. تامغناست. الجزائر.
- 32) محمد المنوني:** مظاهر يقظة المغرب الحديث. الجزء1، الطبعة1، شركة النشر والتوزيع المدارس. الدار البيضاء. 1985.

- (33) **إبراهيم حركات**: المغرب عبر التاريخ. الجزء 3، دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء.
- (34) **أبا عبد الله السليمانى**: اللسان المغرب في تهافت الأجنبي حول المغرب، ط:1 مطبعة الأمنية، الرباط، 1971.
- (35) **محمد المختار السوسى**: المعسول، ج:20، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء.
- (36) **لويس أرنو**: زمن المحلات السلطانية. الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و 1912. ترجمة محمد ناجي بن عمر. مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
- (37) **عبد الله العروى**: مفهوم الدولة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. الطبعة 2، 1983.
- (38) **المختار الهراس**: القائد وأزمة العلاقات القبلية. نموذج الريسوني. المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع. عدد 8 سنة 1986.
- (39) **محمد الباقر الكتانى**: ترجمة الشيخ محمد الكتانى الشهيد. مطبعة الفجر.
- (40) **ميمون مدهون**: المقاومة في منطقة تازة من خلال النص العسكري الفرنسى. ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات، 1956-1900. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب، فاس.
- (41) **سمير بوزويته**: مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسى للمغرب. 1912-1925. ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات، 1956-1900. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب، فاس.
- (42) **محمد بن جلون**: قراءة في تاريخ الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة وجيش التحرير بجهة تازة الحسيمة تاونات. ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات، 1956-1900. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب، فاس.
- (43) **شارل أندري حوليان**: تاريخ إفريقيا الشمالية. الجزء الثانى. الطبعة الثانية. تعريب: محمد مزالي، البشير بن سلامة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1983.
- (44) **عبد الوهاب بن منصور**: قبائل المغرب. الجزء الأول: المطبعة الملكية. الرباط، 1968.
- (45) **محمد الحجوي**: الوظائف التي قام بها الحجوي في وحدة مع ذكر حوادث الثائر بوحمارة. فيلم 932. ج: 123، الخزنة العامة. الرباط.
- (46) **أحمد بن خالد الناصري**: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. الجزء الأول و الثانى. منشورات وزارة الثقافة والاتصال.
- (47) **عبد الرحمان المودن**: البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن 16 و 19. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء، 1995. الطبعة 1.
- (48) **الحسن بن محمد الوزان الفاسي**: وصف إفريقيا. الجزء 1. الطبعة 2. ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر. دار الغرب الإسلامى.
- (49) **عبد العزيز التمسماي خلوق**: تشخيص المجتمع الجبلى بين الواقع والتنظير، (1895-1907) مجلة دار النيابة، عدد 15-16، سنة 1987.
- (50) **عبد الرحمان ابن زيدان**: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس. الجزء الثانى. الطبعة الثانية. المطبعة الوطنية. الرباط، 1990.